INSTITUT
DU MONDE
ARABE

معهد العالم العربي

كرسي المعهد

King Faisal
PRIZE

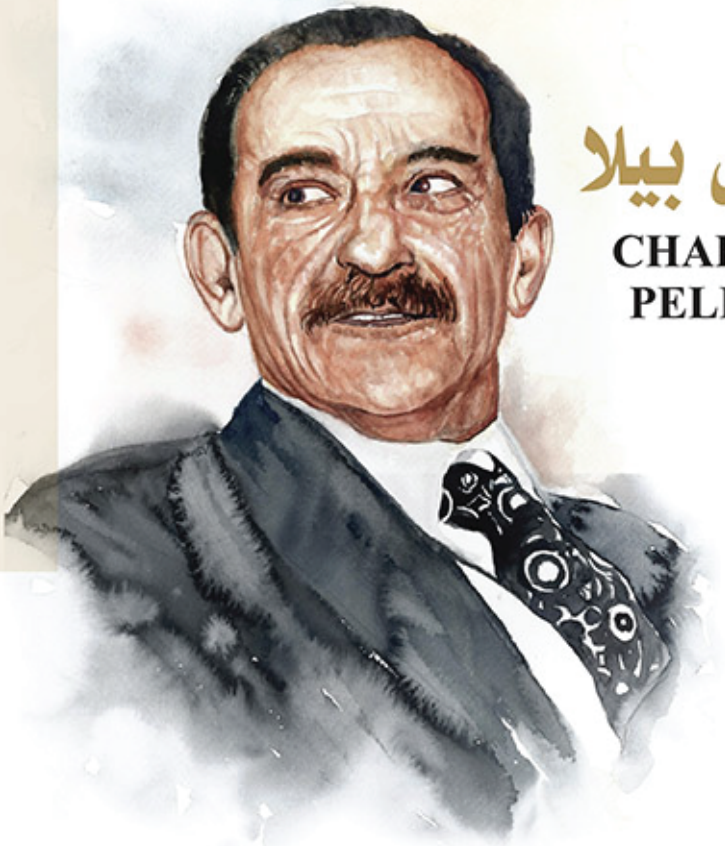

شارل بيلا

CHARLES PELLAT

محمد الجويلي

كتاب وكتاب 100
6

شارل بيلاّ

الكتاب : شارل بيلاّ
المؤلف : **محمد الجويلي**
الطبعة : الأولى 2019
عدد الصفحات : 136
القياس : 13 × 19
الإيداع القانوني : 2019MO1528
الترقيم الدولي : 978-9920-677-06-6

جميع الحقوق محفوظة

المركز الثقافي للكتاب

الدار البيضاء / المغرب
6، زنقة التيكر
هاتف : 212522810406+
فاكس : 212522810407+
markazkitab@gmail.com

بيروت / لبنان
الحمراء ـ شارع المقدسي ـ بناء بلبيسي
هاتف : 9611747422+
فاكس : 9611744733+

INSTITUT DU MONDE ARABE
معهد العالم العربي
كرسي المعهد

King Faisal PRIZE

شارل بيلاّ

صديق الجاحظ

محمد الجويلي

المركز الثقافي للكتاب
للنشر والتوزيع

المحتويات

عتبــة 7

مقدمة 9

نشأة شارل بيلّا وبدايات ولعه باللغة العربيّة 15

بيلّا دارسًا ومدرّسًا للغة العربيّة وباحثًا في آدابها وحضارتها... 22

كُتب بيلّا عن اللّغة العربية وآدابها 29

بيلّا: تلميذ الجاحظ وصديقه 34

مقالات بيلّا حول الجاحظ ومِنْ وحيه 47

بيلّا بين اللغة والدلالة والتاريخ 70

مختارات من كتابات بيلّا الفكريّة والإبداعيّة 97

مختارات ممّا قيل عن بيلّا..... 115

مؤلّفات بيلّا المعتمدَة في هذا الكتاب 129

مراجع..... 135

عتبـة

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروع معرفي طموح، تبنته ونفذته مؤسستان ثقافيتان كبيرتان، هما "جائزة الملك فيصل" بالرياض، و"معهد العالم العربي" في باريس، ممثلاً في "كرسي المعهد". يهدف هذا المشروع إلى التعريف بمائة عالم وباحث، من العرب والفرنسيين، ساهموا في تقديم إحدى الثقافتين للأخرى. لقد كرس هؤلاء الباحثون والمثقفون، العرب والفرنسيون، جهودهم لتعزيز مختلف أشكال الحوار الجاد، والتفاعل الخلاق بين ضفتي المتوسط، خلال القرنين الماضيين. وبفضل منجزاتهم الاستثنائية استحقوا الاحتفاء بهم، والكتابة عنهم، من أجل تخليد ذكراهم، والتعريف بهم لدى الأجيال التالية؛ التي نأمل أن ينظروا إليهم باعتبارهم رموزًا مشعة، تلهم العقول، وتضيء مسالك المستقبل، لكل من يعي أن الثقافة بمكوناتها العلمية والفكرية والجمالية، هي الطريق الأمثل للتعارف والتعاون بين البشر.

اختيار ستين شخصية عربية، وأربعين شخصية فرنسية، جاء نتيجة لعمل مهني متصل، بذلته لجنة علمية مشتركة

على مدار أشهر. حرصت اللجنة أن تكون الأسماء المختارة ممثلة، قدر الممكن، لمختلف الفترات التاريخية، والتخصصات المعرفية، والتوجهات الفكرية والإبداعية. إننا ندرك تمامًا أن في كل اختيار مخاطرة. ولو كتبنا عن ألف شخصية وأكثر، فسيظل هناك أعلام يستحقون الحضور ضمن هذه السلسلة.

يتوجه هذا المشروع الثقافي إلى قارئ عام يقظ، قد يدفعه فضوله إلى المزيد من البحث المعمق في منجزات هؤلاء الوسطاء الثقافيين، الذين طالما استمتعنا بكتاباتهم، وأفدنا من أفكارهم الغنية المجددة.

إنها قناعة من المؤسستين بإضاءة مائة شمعة، تدشينًا لعمل مفتوح، نأمل أن يتممه آخرون من بعدنا، وهنا يحقق المشروع أهدافه الأكثر جمالاً ونبلاً.

خالص التقدير للمؤلفين، الذين آمنوا معنا بالفكرة، وساهموا في تحقيقها. والشكر الأوفر لصاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل، رئيس هيئه الجائزة، والسيد جاك لانغ، رئيس المعهد، لدعمهما ومتابعتهما للمشروع. والله الموفق.

عبد العزيز السبيل معجب الزهراني

مقدمة

يُعدُّ شارل بيلّا (Charles Pellat) أحد أهمّ المستعربين الفرنسيين في القرن العشرين، ولكنّ أهمّ ما يميّزه عن غيره من المستعربين الغربيين عمومًا هو صلته الوثيقة بأبي عثمان الجاحظ الذي قضّى معظم حياته، وعلى مدى ستّة عقود من نشاطه العلمي، باحثًا في مؤلّفاته وآثاره يلازمه في حلّه وترحاله؛ من مرّاكش إلى باريس مرورًا بدمشق، يكتب ويحاضر حول مؤلّفاته في الرباط وتونس وعمّان وصولاً إلى جدّة والرياض، وفي السند والهند وما وراء البحار في الجامعات الأمريكيّة حتّى صار أنيسه وقريبه و"صديقه" كما ورد على لسانه أكثر من مرّة؛ فخورًا بصداقته وبكونه أحد تلامذته الأوفياء، بل تلميذه الأوّل ولعلّه الأخير في فرنسا وفي الغرب بأكمله. وعليه، رأينا أن نولي في هذا الكتاب هذه الصداقة الفكريّة التي جمعت بيلّا بالجاحظ الأهميّة اللائقة بها، فخصّصنا لها حيزًّا كبيرًا منه: تحليلاً وبحثًا من خلال المقتطفات التي انتقيناها من أقواله، وممّا قيل عنه وعن مؤلّفاته على ألسن ثلّة من الباحثين، وممّن عاشره وعرفه؛ سواء في محيطه العائلي أو في مجال عمله الأكاديمي. ولكنّنا

لم نقتصر على ذلك، فعرضنا، علاوة على رسالته في الدكتوراه عن الجاحظ، كتبه الأخرى التي لا صلة لها بأبي عثمان والمتعلّقة خصيصًا باللغة والآداب العربيّة. ويلاحظ القارئ أننا من مجموع آثاره كلّها عملنا على أن نستفيد أكثر ما يمكن في تعريفنا بالرجل من مذكراته التي حبّرها بالفرنسيّة قُبيل أن توافيه المنيّة، وطلب من ابنته أن تنشرها بعد وفاته، وصدرت سنة 2007 في كتاب بعنوان (Une vie d'Arabisant) "سيرة مستعرب"، أي بعد مضيّ خمس عشرة سنة من وفاته. وتكمن أهمّية هذا الكتاب الذي لم يُترجم بعْد إلى العربيّة – على حدّ علمنا – في كونه شهادة حيّة من صاحبه تنير السبيل إلى بعض الزوايا المعتمة؛ ليس في حياة الرجل الشخصيّة فقط، وإنّما كذلك في مسيرته العلميّة، وفي علاقته باللغة والآداب والثقافة العربيّة كما يكشف عن ذلك عنوانه الذي اختاره له. وقد حاولنا أن نستفيد من سيرته؛ ليس فقط للتعريف بالرجل وبالمحطّات المهمّة في حياته منذ نشأته بالجزائر والمغرب حيث ولدت في نفسه الرغبة في تعلّم اللغة العربيّة لتترعرع بمرور الأيّام والأعوام وتستبدّ بصاحبها، فيربط حياته المهنيّة كلّها بلغة الضاد وآدابها ويصير أحد أبرز المتخصّصين فيها في العالم بأسره؛ وإنّما كذلك لتدارك ما استحال علينا لأسباب منهجيّة التطرّق إليه في عرضنا مؤلّفاته

ومنهجه في البحث، بحيث فسحنا له المجال ليحدّثنا بنفسه مثلاً عن المعاناة التي كابدها في تجديد مناهج تدريس اللغة العربيّة في فرنسا وفي الدفاع عن هذه اللغة وإثبات أنّها لغة حيّة وليست ميتة كما يتوهم البعض، وتحقيق كتاب "مروج الذهب" للمسعودي ونشره أجزاءه على مراحل، كذلك تحقيقه بعض كتب الجاحظ، مثل: "التربيع والتدوير"، و"كتاب البغال". كما فسحنا المجال لغيره من الباحثين ليحدّثونا عنه وعن بعض نشاطاته العلميّة التي لم يكن من الممكن أن نعرض لها لتشعُّبها ولعدم اتساع المقام لها، أو لأنّنا عرضنا لها باقتضاب شديد للأسباب نفسها، مثل: علاقته بالشعر العربي، والمهام التي أُوكلت إليه في دائرة المعارف الإسلاميّة، وتشريفه بعد تقاعده بضمّه إلى أسرة أكاديمية الآداب والفنون الفرنسيّة، هذه الأكاديمية العريقة التي لا يُضمّ إليها إلّا صفوة العلماء والمبدعين الفرنسيين في اختصاصات الآداب والفنون والإنسانيات المختلفة.

من ناحية أخرى لا بدّ من التنبيه على أن شارل بيلّا يتميّز بغزارة إنتاجه، فمقالاته كثيرة تُعدّ بالمئات ونشر عناوينها كلّها في قائمة لا يتّسع له هذا المقام، - فما بالك إذن بالاستفادة منها كلّها بالعرض والتحليل والنقد- ولذلك يُستحسن لمعرفة هذه العناوين كاملة الرجوع إلى الفصل الذي خصّصه نجيب

العقيقي لشارل بيلّا في كتابه "المستشرقون"[1]، وكذلك إلى مجلّة كرّاسات تونسية[2] التي نشرت قائمة عناوين أعماله في زهاء عشرين صفحة من الحجم المتوسّط. ولذلك، رأينا أن نقتصر على إيراد قائمة العناوين التي اعتمدنا عليها في هذا الكتاب وتتضمّن معظم كتبه المنشورة وباقة من مقالاته التي نشرها في مجلّات علميّة مختلفة باللغات الفرنسيّة والإنجليزية والإسبانيّة اختارها لأهمّيتها بنفسه لتصدر في كتاب بعنوان فرنسي عرّبناه بـــ"التاريخ الاجتماعي الثقافي للإسلام"، علاوة على المقالات التي نشرها في دائرة المعارف الإسلاميّة خاصة، ورأينا أنّها نموذجيّة وتعبّر عن أسلوب الرجل في البحث وطريقته في التفكير، وتكشف عن طبيعة انشغالاته بالحضارة العربيّة الإسلاميّة ومنهجه في ذلك الثلاثي الأبعاد: اللغة والدلالة والتاريخ. ولكون الغاية من مؤلّفنا هذا تتمثّل في إبراز صلة بيلّا باللغة والثقافة العربيّة الإسلاميّة لجمهور عريض من القرّاء وليس للمختصّين فقط؛ بمعنى أنّه ليس من جنس

(1) نجيب العقيقي، المستشرقون، ج3، ط4، مصر، دار المعارف، 1981 ص 353-359.

(2) كرّاسات تونسيّة (القسم الفرنسي): مجلّة العلوم الإنسانيّة، محكّمة تصدر بالعربيّة والفرنسيّة عن كلّية الآداب والعلوم الإنسانيّة بتونس، عدد 139-140، الثلاثيان الأوّل والثاني، 1987 (عدد خاص تكريما لشارل بيلاّ)، ص7-28.

المؤلّفات الأكاديمية رغم أنّنا التزمنا فيه مقوّمات البحث الأكاديمي - منهجًا وتوثيقًا - فقد رأينا أنّه لا فائدة من قفله بخاتمة تقليديّة وفضّلنا أن نختمه بشهادات حبّرها آخرون عنه ممّن عرفوه عن كثب: ابنته، وفان دونزل (Van Donzel) مساعده في تحرير دائرة المعارف الإسلاميّة، والأستاذان بجامعة تونس: فرحات الدشراوي والطيب العشّاش، وهما من طلبته القدامى في جامعة السوربون بباريس. لقد أطلق العرب على بيلّا صفة "صانع الدكاترة"، في حين أطلق هو على نفسه "صديق الجاحظ". وإذا كان بيلّا لم يختر أن يُولد في الجزائر أو ينشأ في المغرب المستعمرتين الفرنسيتين في النصف الأول من حياته، كما لا يمكن لأحد أن يختار والديه وموطنه، بحيث شاءت الأقدار أن يكون - مكره أخاك لا بطل - جزءاً من ماضي فرنسا الاستعماري، فإنّه قد اختار بمحض إرادته أن يتخصّص في اللغة والآداب العربيّة ويُعرّف بها في فرنسا وفي الغرب بأكمله، فصار أحد أبرز سفراء الثقافة العربيّة والإسلاميّة فيهما. ورغم تحفّظه وملازمته الحياد السلبي كما يعيب عليه البعض مثل آلان مسعودي (Alain Messaoudi)[1] في قضيّة مازالت تُسيلُ الكثير من الحبر؛ ألا وهي ما اقترفته

(1) Alain Messaoudi, «Pellat Charles (1914-1992)» in *Dictionnaire des orientalistes de langue française*, nouvelle édition, (François Pouillon (éd)), Paris, Kartala, 2012, p788.

فرنسا الاستعماريّة من مظالم في حقّ الشعب الجزائري الذي انتفض في نهاية الخمسينيات من القرن الماضي من أجل استقلاله، وهو رأي نقرأ في شهادات ممّن عرفوه عن قرب ما يخالفه مثل د. فرحات الدشراوي الذي يؤكّد على إيمان بيلا بأحقية الشعوب في تقرير مصيرها، فمن خلال صداقته بأبي عثمان الجاحظ صار صديقا للناطقين بلغة الضاد جميعا ومن خلال احتضانه وهو صانع الدكاترة لعشرات الطلّاب العرب في جامعة السوربون من أجل البحث في ثقافتهم قد ساهم بفعاليّة -وهو إنجاز يُحسب له- في تحرير الثقافة العربيّة من المركزية الأكاديمية الأوروبية، من أن تكون موضوعا لدراسة علماء الغرب لوحدهم وتسليم البحث فيها كذلك لأبنائها أمانة في عنقهم، أساتذة لأجيال المستقبل في الجامعات العربيّة.

نشأة شارل بيلاّ وبدايات ولعه باللغة العربيّة

في مستهلّ سيرته الذاتيّة[1] يشدّد شارل بيلّا على انتمائه إلى عائلة فقيرة، فوالد جدّه، كان مزارعًا كادحًا، غليظ القلب كما يصفه، لم ينتظر ولادة الطفل البكر لابنه ليعلمه أنّه يستحيل عليه أن يتحمّل أعباء عائلة أخرى ويعيلها في قطعة الأرض الصغيرة التي كان يملكها في الجنوب الفرنسي في محيط لفلوري (La flaurie)[2]، وطلب منه أن يبحث عن عمل له في مكان آخر وأن ينصرف بزوجته الحامل إلى حال سبيلهما. كان ذلك -كما يقول- هو مصير الكثير من شباب القرية الذين

(1) اعتمدنا بصفة أساسية في هذا الفصل على مذكّرات شارل بيلاّ التي صدرت بعنوان "سيرة مستعرب" (Une vie d'Arabisant). ولمعرفة مقتضبة ومكتنزة بسيرة بيلاّ انظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج3، ط4، مصر، دار المعارف، 1981 ص353-359 وكذلك:
Alain Messaoudi, «Pellat Charles (1914-1992)» in *Dictionnaire des orientalistes de langue française*, nouvelle édition,) François Pouillon (éd)), Paris, Kartala, 2012, p788.

(2) وهي الآن قرية تقع في سهول منطقة جبال الألب العليا على الساحل اللّازوردي المعروف بمدينه: نيس وكانْ وغيرهما.

وجدوا أنفسهم في وضع مشابه اضطرّهم لعبور البحر المتوسّط، إلى الضفّة الأخرى في الجزائر المستعمرة من فرنسا حيث وقع انتدابهم في شركة السكك الحديد الجزائرية للقيام بأشغال يؤدون فيها أدوارًا ثانويّة. وهكذا نسج جدّ شارل بيلّا على منوال هؤلاء الشباب الفقراء دون تردّد وقرّر أن يحزم حقائبه - كما يقول - "ليشدّ الرحال إلى الجزائر ممتطيا الباخرة من مدينة مرسيليا سنة 1890 رفقة جدّتي التي لم يكن يتجاوز عمرها العشرين ربيعًا ووالدي الذي لم يمض على ولادته إلّا سنة واحدة ليستقرّ الثلاثة في قرية تقع في جهة قسنطينة سُميت باسم الجنرال بوتي (Petit)[1]، وهي القرية التي وقع تعميده فيها بعد ولادته.

وُلد شارل بيلّا سنة 1914 في قرية سوق أهراس المتاخمة لتونس التي صارت اليوم مدينة وكانت تُسمَّى في الفترة الاستعمارية باسم القديس أغسطينوس[2]، وعند عودته إلى الجزائر يروي بيلّا أنّه كان يسعد بالذهاب إلى جدّته، والدة أبيه، وتمضية أسابيع في منزلها وهي التي ترمّلت منذ سنة 1918، وكان أكثر ما يسرّه هو مشاهدة احتفالات القرية التي تقطن فيها والتي من

(1) أصبحت تُسمّى بعد استقلال الجزائر باسم مناضل جزائري مات من أجل استقلال البلاد عن فرنسا "أحمد بومهرة"، أصيل هذه القرية وهي الآن من البلديّات التابعة لولاية جالمة (الجيم المصرية) في شرق الجزائر.

(2) سيرة مستعرب (بالفرنسيّة)، ص14.

فرط شهرتها كانت تستقطب الأوروبيين الذين كانوا يأتونها من المناطق المجاورة وهم المحرومون من وسائل الترفيه عن النفس لقضـــاء أوقـــات ممتعة. لعلّه في هذه الأجواء، يقول شارل بيلّا: "قد نشأ ودون سابق تخطيط في داخلي الميل أن أكون مستعربًا، وهو الميل الذي سيثبت بمرور الأيّام"[1].

لقد كان للمحيط العربي في الجزائر، الذي أبصر فيه شارل بيلّا النور وترعـــرع، الأثـــرُ البالغُ في نحت شخصيته وشغفه بالثقافة العربيّة وربط مستقبله بها. يذكر بيلّا أنّ مشهد السيارات التي كان يسترق إليها النظر من شرفة قاعة الجلوس في بيت جدّيه لم تكن تثير انتباهه في أثناء طفولته كما يثيره مشهد الإبل التي كانت تمرّ من هنالك من حين إلى آخر. ما كان ينتظره بفارغ الصبر - كما يقول هو - مرور البدو الرُّحَّل، بل رعاة الماشية الذين كان يسعد بظهورهم سعادة غامرة، بحيث يمكنه الوقوف على قارعة الطريق ليتأمّلهم عن قرب. شدّت انتباهه في البداية الإبل، ولكن سرعان ما أنسها ولم يعد يخشاها لكونها بدت له حيوانات مسالمة على أحسن ما يكون. وكانت تمرّ من هنالك -كما يروي في مذكّراته - كذلك الحمير، أو بالأحرى الجحاش "وهي الكلمة الوحيدة في العربيّة التي كنت أعرفها لأشير بها إلى هذه الحيوانات التي

(1) المصدر نفسه، ص15.

كثيرًا ما تُعامل عمومًا معاملة سيّئة من أصحابها"، قبل أن يضيف قائلاً: "اعتقدت في بــراءة الأطفــال أنّ صغار الحمير التي كانت تمرح وتتراقص حول أمهاتها لم تكن لها أيّ قيمة في أعين أصحابها ويكفيني فقط أن أطلب من هؤلاء جحشًا حتى أحصل عليه [دون عناء]. وهكذا تعلّمت أوّل عبارتين في اللغة العربيّة مازلت أتذكرّ سياق تعلّمهما بدقّة، هما: "أعطني جحشًا". كان بيلّا الطفل يجلس في كرسيه على رصيف الطريق - كما يقول- يردّد على مسامع الرعاة العابرين دون كلل أو ملل هاتين العبارتين اللتين اكتسبتا في ذهنه قيمة يصفها بالسحريّة، غير أنّ هؤلاء المارّة كانوا يتظاهرون بعدم سماعه ولا ينظرون إليه حتّى مجرّد النظر، ولربّما لم يكن طلبه يتناهى إلى مسامعهم أصلاً، وحتّى إذا ما سلّمنا أنّه أمكن لصوته الخافت أن يلفت انتباههم لم يكونوا ليهبوه هذه الهديّة التي كان يتوسّلها في سذاجة. هكذا يؤكّد بيلّا، وهو يروي هذه الذكرى، مستدركًا: لَعلَّ هؤلاء لم يكونوا يفهمون طلبه ليس فقط لأنّ نطقه لهاتين العبارتين لم يكن على أحسن وجه، وإنّما لأنّ هؤلاء الرعاة لربّما لم يكونوا يفهمون العربيّة أصلاً. فهؤلاء، كما علم في فترة لاحقة، هم من البربر الشاويّة الذين كانوا سيردّون على طلبه على أقلّ تقدير بابتسامة لو توجّه إليهم في طلبه باستعمال كلمة "أسنوس" التي تعني "الجحش"

في اللغة الأمازيغيّة. أصرّ بيلّا الطفل على امتلاك جُحيش كما يضيف وهو يروي هذه الذكرى العزيزة عليه من طفولته، وهو ما مكّنه منه والده ليعتني به في حديقة المنزل[1].

كانت جملة "أعطني جحشًا" إذن، هي أولَّ جملة عربيّة نطق بها شارل بيلّا الطفل ووردت في صيغة الأمر- الطلب وفي لكنة فرنسيّة غير مفهومة، على الأرجح، دون أن يعني ذلك أنّه خلال إقامته في الجزائر، التي امتدّت إلى كامل العقد الأوّل من حياته، لم يتعلّم كلمات عربية أخرى. ولكنّ معرفته بلغة الضاد ستتعمّق أكثر بعد استقرار عائلته بالمغرب منذ سنة 1924 وهو في عمر السنوات العشر في قرية تقع في شرق البلاد سكّانها ناطقون باللغة العربيّة، بحيث وجد نفسه -كما يقول- في محيط أفضل للشروع في تعلّم هذه اللغة. ويروي بيلّا طرفة عن بدايات تعلّمه العربيّة في المغرب أنّه لمّا كان يستمع إلى عمّال مغاربة يشتغلون في مدّ السكك الحديد يقولون في صوت جهوري لبعضهم بعضًا: "أوقبيلة" (ougbila) الكلمة العامية التي تعني "نلتقي لاحقًا" كان يعتقد أنّهم ينادونه قائلين: يا "ولد بيلّا "متسائلاً كيف يمكن لهؤلاء أن يعلموا أنّه موجود هنالك![2]. غير أنه، رغم إقراره في بداية استقراره بالمغرب بأنّه لم يبلغ

(1) المصدر نفسه، ص15-16.

(2) المصدر نفسه، ص16.

في تعلُّم اللغة العربيّة مبلغًا مثيرًا للدهشة والإعجاب، فإنّه قد تعلَّم ما يكفيه من الكلمات العربيّة للتخاطب اليومي. التحوّل الحقيقي الذي عرفه بيلّا فيما يتعلّق بتعلُّم اللغة العربية تمَّ في فترة لاحقة في الدار البيضاء بعد أن أتمَّ دراسته الابتدائية، بحيث فضّل العربية على الإنجليزية والألمانيّة عند التحاقه بالفصل السادس في المعهد الثانوي دون استشارة أحد في ذلك لاعتقاده، في تلك الفترة، أنّهما لغتان لا تفيدانه في شيء، وهو الذي كان يعيش في محيطٍ لغتُه الأساس هي العربيّة. لطالما كان بيلّا، وهو يروي ذكرى اختياره اللغة العربية موضوعًا للتعلّم، يتساءل عن السبب الذي جعل أقرانه يختارون إحدى هاتين اللغتين الأوروبيتين اللّتين كانتا تُدرَّسان منذ الفصل السادس، أي ما يطابق السنة الأولى الإعدادية، كما كان يتساءل كذلك عن السبب الذي يجعل طلبة العربية أقلَّ عددًا بكثير من دارسي الإنجليزية والألمانية، ومعظمهم من المغاربة المسلمين واليهود الناطقين بهذه اللغة، إضافة إلى عدد قليل من أبناء المستعمرين. لا شكّ في أنّ تفضيل أغلبيّة الأوروبيين القاطنين في المغرب من أبناء جيله هاتين اللّغتين على العربيّة يعود إلى كون هذه اللغة ليست من اللغات المعتمدة في مناظرات القبول في المدارس العظمى بعد ختم المرحلة الثانويّة. وهكذا يكتفي هؤلاء -كما يشير بيلّا ساخرًا - بتعلُّم بعض الكلمات العربية التي تكفيهم فقط لإعطاء

أوامرهم للخادمات في منازلهم[1]. يعبّر بيلّا عن سخطه من احتقار الكثير من الأوروبيين في عصره اللغة العربيّة؛ معتقدين - على حدّ قوله - أنّ القرآن قد كُتب بلغة غير قابلة للفهم، ويعطي مثالاً على ذلك من خلال تجربته لاحقاً في الجيش الفرنسي في الفترة الفاصلة بين 1933-1934 حيث لاحظ عن كثب الاحتقار الكبير الذي ينظر به بعض الفرنسيين إلى اللغة العربيّة الذي بقدر ما يعود إلى غبائهم، يعود إلى جهلهم على حدّ تعبيره. كان بيلّا حائزًا الإجازة في اللغة والآداب العربية من جامعة بوردو (Bordeaux)، وعندما تفحّص العسكريُّ ملفَّه دفعه الفضول إلى قراءة تفصيل المواد والشهادات التي حصل عليها، وهي شهادة الدراسات التطبيقية العربيّة، وشهادة في فقه اللغة العربيّة (فيلولوجيا)، وشهادة في الأدب العربي، ثم شهادة في الدراسات الكلاسيكية، فما كان من هذا العسكري؛ رغبةً منه في التحرّي وشكًّا منه في أن تكون العربيّة جديرة بأن يقع التخصّص فيها؛ إلّا أن أرسل خطابًا إلى الجامعة متسائلاً إذا ما كانت هذه الإجازة التي بين يديه هي فعلا إجازة وجديرة بأن تُسمّى كذلك[2].

(1) المصدر نفسه، ص17-18.

(2) المصدر نفسه، ص18.

بيلاّ دارسًا ومدرّسًا للغة العربيّة وباحثًا في آدابها وحضارتها

التحق بيلّا بالجامعة في السنة الدراسيّة (1933-1934) وحصل في نهاية السنة الجامعيّة (1933-1934) على شهادتي الدراسات الكلاسيكية وفقه اللغة العربيّة، وكذلك على شهادة في إتقان العربية الفصحى (القديمة) من معهد الدراسات العليا المغربيّة[1]، وكانت هذه الشهادات كافية ليُعيّن مدرّسًا مساعدًا للّغة العربيّة في المدرسة الإعداديّة بمرّاكش حتّى قبل أن يحصل على الإجازة التي كان ينبغي لإحرازها أن يحوز شهادة الأدب العربي. ولم يكن ذلك ليحدث لولا النقص الفادح في مدرّسي اللغة العربيّة بين الفرنسيين كما يقول، بحيث حظي بامتياز، وهو لم يتجاوز من العمر عشرين سنة، أن يبدأ مسيرته الطويلة في تدريس العربية في سنّ مبكرة امتدّت إلى أربع وأربعين سنة[2]. يقول بيلّا متحدّثًا عن بداية تجربته في

(1) المصدر نفسه، ص27.

(2) المصدر نفسه، ص28.

تدريس اللغة العربيّة بمراكش: "إنّ تدريس المرء لِلُغةٍ لا يعرفها جيّدًا هو في ذاته نوع من التحدّي، ولكن، أن يُدرّسها لتلاميذ يتحدَّثون بها في منازلهم هو نوع من الاستفزاز لهم... لقد كان تلاميذي الناطقيـــن بالعربيّـــة، سواء من اليهود أو المسلمين، متسامحين معي؛ لربّما لأنّهم كانوا يعرفون، وهم في سنتهم الأولى بالإعداديّة، أنّه بعد سنتين أو أقلّ من ذلك ستكون لي الأفضليّة عليهم في معرفة اللغة العربيّة الفصحى حتى لو كانت معرفة متواضعة"[1].

غير أنّ بيلّا سرعان ما تنبّه إلى ضرورة القيام، في أقرب وقت ممكن، بواجبه العسكري الذي يلزمه، كما سائر الشبّان الفرنسيين في مثل سنّه، أن يقضي سنتين في التدريب العسكري حتى يستطيع التفرّغ بعد ذلك لدراسته وليمكنه كذلك الزواج؛ فالتحق بالجيش وأُرسل إلى الجزائر ثمّ في المغرب سنة 1938 وبعد ذلك في سورية سنة 1939 إلى أن وقع تسريحه من الجيش في سنة 1946، أي بعد انتهاء الحرب العالميّة الثانية.

لقد خلّف تسريح بيلّا من الجيش في نفسه مرارة عبّر عنها في سيرته الذاتيّة، ويرى أنّ الأسباب التي دعت إدارة الجيش إلى تسريحه وهو في رتبة ملازم هي أسباب واهية ولا أساس

(1) المصدر نفسه، ص28-29.

لها من الصحة[1]. يقول بيلّا عن هذه الحادثة التي غيّرت مجرى حياته المهنيّة، والتي من حسن حظّه أنّها تزامنت مع حصوله على شهادة التبريز في اللغة والآداب العربيّة التي تُمكّن صاحبها من التدريس بالتعليم الثانوي دون صعوبة، كما تفتح له آفاقًا للالتحاق بالجامعة، في نبرة لا تخلو من الإحساس بالمظلمة التي عاشها: "يصعب على المرء أن يغيّر مهنته وفي ظروف مغايرة للتي عشتها كنت سأتردّد في مغادرة الجيش حيث تحصلت على العديد من الامتيازات وتحملّت مسؤوليات... لكنّي شعرت حقًّا بالارتياح عندما اتُّخذ القرار بتسريحي بعد نجاحي في مناظرة التبريز"[2]. بعد تسريحه من الجيش اشتغل بيلّا مدّة قصيرة في وزارة الخارجية وتهيّأ للسفر إلى بيروت للعمل في القسم الثقافي بالسفارة الفرنسية هنالك، ولكن وقع صرف النظر عنه "بحجّة أنّه اشتغل سابقًا مدّة معيَّنة مع المخابرات الفرنسيّة[3] كما أسرّ له أحد معارفه من

(1) المصدر نفسه، ص60-61.

(2) المصدر نفسه، ص62.

(3) يروي بيلاّ في سيرته الذاتيّة تجربته مع المخابرات العسكريّة الفرنسيّة في سورية. كان يرغب باعتباره مديرا للمنشورات -كما يقول- في بعث مجلّة باللّغة العربيّة هدفها رفع معنويات المغاربة (نسبة إلى المغرب العربي عموما) الذين أثّرت فيهم الدعاية الألمانيّة وبدؤوا يميلون إلى المحور المعادي لفرنسا. انظر سيرة مستعرب، ص55.

الدبلوماسيين في لهجة تنمّ عن النفاق" على حدّ قوله[1].

غير أنّ حصوله على التبريز كما يروي في "سيرة مستعرب"، وتأليفه بعض المقالات، وإنجازه بعض الأعمال التي يذكر منها: رسالة دكتوراه في فقه اللغة البربريّة تردّد في إيداعها للنقاش، وترجمة كتاب البخلاء للجاحظ كان قد أنجزها خلال إقامته في دمشق، ونسخة من كتاب التاج المنسوب إلى الجاحظ كذلك كان قد حقّقها وأعدّها في الجزائر للطبع لمّا كان يتهيّأ لاجتياز مناظرة التبريز، هذا بالإضافة إلى أعمال أخرى تتعلّق باللهجات البربريّة والعربيّة من شأنها أن تثري منشوراتـــه العلميّـة قد جعلتـه يأمل في الالتحاق بالجامعة مدرّسا. غير أنّ الرياح تجري بما لا تشتهي السفن فقد حُرم بيلّا، في نظره، من هذا الاستحقاق ولم تُعرض عليه إلّا وظيفة مدرّس بالتعليم الثانوي، وخُيّر بين معهد وجدة في المغرب ومعهد لوي لوغران (Louis Le Grand) في باريس، والسبب في ذلك يعود -مرّة أخرى- إلى الوظائف التي كُلّف بها في الجيش في مرحلة حاسمة من تاريخ فرنسا في أثناء الحرب العالميّة الثانية، حيث اعترض أحدهم من الأكاديميين، ويُدعى علّوش (Allouche)، على انتدابه في معهد الدراسات

(1) سيرة مستعرب، ص62.

العليا المغربيّة بحجّة أنّه تحمّل مسؤوليات كلّفته بها حكومة فيشي (Vichy)[1] - وهي على ما يبدو نفس الحجج التي دفعت الجيش إلى تسريحه والتخلّص منه - دون أن يتساءل علوش هذا - كما يقول بيلّا - "عن المهام التي كلّفت بها"[2]. التحق بيلّا بمعهد لوي لوغران مدرّسًا وفضّله على معهد وجدة لأنّه رغب في مواصلة دراسته الدكتوراه في باريس في ظروف أفضل. لم تثنه الظروف الصعبة التي عاش فيها خلال هذه الفترة عن إعداد رسالته للدكتوراه حول البيئة البصرية وتأثيرها في تكوين الجاحظ الأدبي والفكري، وكذلك عن التدريس بصفة عرضيّة في الجامعة عندما وقع الالتجاء إليه لتعويض جورج كولين (Colin) في تدريس اللهجات العربية المغاربيّة وتقديم درس في معهد الدراسات الإسلاميّة لطلبة الإجازة في اللغة والآداب العربيّة، وكذلك للطلبة المترشحين لاجتياز مناظرة التبريز في نفس الاختصاص[3]. غير أن مسيرته الفعليّة مدرّسًا بالجامعة بدأت عمليًّا حين عُـيّن سنة 1951 في معهد اللغات الشرقيــة وظـلّ يساعد بروفنسال (Provençal)

(1) حكومة فيشي (Vichy) هي الحكومة الفرنسية التي تولّت السلطة في أثناء الحرب العالميّة الثانية من 1940 إلى 1944 بتواطؤ مع ألمانيا النازية التي كانت تحتلّ فرنسا.

(2) سيرة مستعرب، ص 64.

(3) سيرة مستعرب، ص66.

في التدريس بجامعة السوربون: في الإجازة والتبريز. حينئذ بدأ بيلّا يحتلّ مكانة متميِّزة بين المستعربين الفرنسيين وذاع صيته تدريجيًّا بين طلّاب اللغة العربيّة وآدابها. يقول بيلّا: "في هذه الفترة بدأ المترشحون لإعداد رسائل دكتوراه يتهاطلون عليَّ وهم مبتهجون بأنّهم حظوا بإشراف أستاذ شاب نسبيًّا لا يشكو لهم من كثرة التزاماته وضيق وقته، والذي بدأ يستحقّ كنية "صانع الدكاتره" التي أُطلقت عليه لاحقًا في لبنان[1]؛ هذه المسيرة التي توّجها بالتحاقه بجامعة السوربون ومواصلته - بالإضافة إلى التدريس - الإشراف على رسائل الدكتوراه في حقل الدراسات العربيّة والإسلاميّة. لم تحظ تجربة السوربون في سيرة بيلّا الذاتية - على خلاف تجاربه الأخرى- بأكثر من صفحة أشار فيها إلى كثرة الدعوات التي بدأت تتهاطل عليه بعد التحاقه بهذه الجامعة لإلقاء محاضرات في المؤتمرات الدوليّة التي كانت تُعقد في بلدان شتّى من العالم، ولكنّه، على العكس من ذلك، لم يبخل على القارئ في فصول أخرى بتشخيص ما آل إليه -حسب تقييمه- وضعُ اختصاص الدراسات العربيّة والإسلاميّة من تدهور من خلال تجربته الطويلة في تدريس هذا الاختصاص والإشراف عليه في معهد اللغات الشرقيّة أوّلاً، ثمّ في جامعة السوربون إلى أن تقاعد عن العمل

(1) سيرة مستعرب، ص68.

سنة 1978[1]. لكنَّ بيلّا لم يكتف فقط بالتدريس في باريس بعد التحاقه بالجامعة. فقد ارتحل أستاذًا زائرًا ومحاضرًا ودرّس مُددًا وجيزة، أو قدّم محاضرات في جامعات عالميّة متعدّدة، بما في ذلك في جامعات عربيّة، مثل كلية الآداب في الرياض بالمملكة العربيّة السعودية التي ألقى فيها محاضرة باللغة العربيّة عن "الحِلْم والحُلماء عند العرب" نشرتها مجلّة هذه الكلّية لاحقًا في عددها الثاني للسنة الجامعيّة 1971-1972، كما سبق لها أن نشرت له مقالاً بالعربيّة في عددها الأوّل لسنة 1971 حول "الموشّح والزجل همزة الوصل بين الثقافات المختلفة"[2]، وكذلك في كلّية التربية في طرابلس- ليبيا حيث ألقى محاضرة عن أسطورة شهرزاد في الأدب المعاصر نشرتها مجلّة هذه الكلّية في عددها الثالث لسنة 1972[3]، وفي كليات الآداب في تونس، وجدَّة، وعمَّان، وغيرها[4].

(1) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(2) انظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج3، مصر، دار المعارف، ط 1981، 4، ص 354-355 .

(3) المرجع نفسه، ص355.

(4) انظر: الطيب العشاش "شارل بيلاّ"، ص13-14، وكذلك سيرة مستعرب، ص107- 140-141.

كُتب عن اللّغة العربية وآدابها

من الثمرات الأولى لدراسة شارل بيلّا اللغة العربيّة وتدريسها والبحث في آداب العرب وثقافتهم، وكذلك إقامته فترة طويلة في عدد من البلدان العربيّة ومخالطته اليوميّة للعرب في المغرب والمشرق، إصدارُه باللّغة الفرنسيّة مجموعةً من الكتب التي يُمكن أن ننعتها بـ"المدرسيّة" موجّهة إلى الطلبة الفرنسيين أو غيرهم من الناطقين بها الدارسين للغة والأدب العربيين، عِلاوة على كلّ من يرغب في تعلُّمها خارج الجامعة على أسس علميّة، لا كما دأب كثيرون على تدريسها في فرنسا غير آخذين في الاعتبار تطوّر هذه اللغة وآدابها عبر التاريخ، وكذلك ضبط ما هو ضروري وحاجي للتواصل بها: كتابةً وقراءةً وفهمًا ومُحادثةً. أوّل هذه المؤلّفات، هو كتاب "اللغة والآداب العربيّة" الذي صدر في سلسلة يديرها العميد بول مونتال (P.Montel)[1]. نجح بيلّا في هذا المؤلّف الصغير

(1) Ch. Pellat , *Langue et Littérature* arabes (deuxième édition), Paris, Librairie Armand Colin, 1970.

الحجم وفي عدد قليل نسبيًّا من الصفحات أن يجمع مادة ثريّة وشاملة تتعلّق بتطوّر اللغة العربية وآدابها عبر العصور. ولم يكن ذلك ممكنًا باعتراف الكاتب نفسه[1] لو لم يتوخّ طريقة جديدة تتمثل، من ناحية، في التعريف بالآليات التي تتحكّم في اللغة العربيّة وبالكيفية التي تتطوّر بها في خطوطها العريضة، أي بصفة شاملة ودون الوقوف على الجزئيات، ومن ناحية أخرى في رسم لوحة للأدب العربي تتضح فيها ملامحه العامة؛ آخذًا في الاعتبار ضرورة الاهتمام بالآثار الأدبية ذاتها عوض الانشغال بمؤلّفيها كما فعل مَنْ سبقوه من مؤرخي اللغة العربيّة وآدابها[2].

أمّا الكتاب الثاني الذي يندرج في هذا المسار، فهو كتاب "اللغة العربيّة الحيّة"[3] الذي أصدره بيلّا بالفرنسيّة سنة 1952 وضبط فيه معجمًا للكلمات الأساسيّة لما سمّاها: اللّغة العربيّة الحديثة؛ أي المستعملة في هذا العصر، وذلك بتصنيف هذه

(1) انظر "تمهيد" بيلاّ لهذا الكتاب "بالفرنسيّة"، ص5.

(2) انظر بيلاّ "تمهيد" في الكتاب نفسه، ص4-5
وانظر كذلك:
André Parrot «Charles Pellat - *Langues et Littérature arabes* (compte-rendu)» in Syria, Archéologie, Art et histoire, année 1953, N30- 1-2, p.168.

(3) Ch . Pellat, *L'Arabe vivant,* Paris, Librairie D'Amérique et D'Orient : Maisonneuve, 1984, p 250.

الكلمات حسب معانيها أو حقولها الدلاليّة التي ضبطها المؤلّف في تسعة فصول أفرد لكلّ واحد منها فصلاً مستقلًّا بذاته: الطبيعة –الإنسان– الحياة الخاصة –الحياة الاجتماعيّة– الفكر والفنّ –علم الآثار والتاريخ– الأخلاق والدين – السياسة والإدارة والقانون – الجيش– الاقتصاد[1]. والهدف من ذلك أن ييسّر على الطلبة الفرنسيين الدارسين للعربيّة خاصة، وكلّ من يرغب في تعلُّم هذه اللغة من غير الناطقين بها – فرنسيين وغيرهم – فهمها وتمثّلها وذلك بتجنّب حشو رؤوسهم بما لا طائل من ورائه من الألفاظ "الحوشيّة" التي لم تعد مستعملة.

ولهذه الغاية المدرسيّة ذاتها أصدر بيلّا بالفرنسيّة كتابًا آخر سنة 1956 في نفس حجم الكتاب السابق (243 صفحة) بعنوان: "مقدّمة لدراسة اللغة العربيّة الحديثة"[2] أشار فيه إلى أنّه بالإمكان الحديث عن لغة عربيّة حديثة، أي كما هي مستعملة في هذا العصر (النصف الثاني للقرن العشرين) مقارنة باللغة العربيّة القديمة التي كانت مستعملة في العصور الوسطى، وهذا لا يعني – حسب اعتقاده – أنّه ليس ثمّة علاقة بينهما، بل بالعكس فبنية اللغة العربيّة قديمًا وحديثًا هي نفسها،

(1) انظر فهرس الموضوعات (بالفرنسيّة) لهذا الكتاب مفصّلا.

(2) Ch .Pellat , *Introduction à L'Arabe moderne*, (Deuxième édition). Paris, Maisonneuve; 1985.

وكذلك نحوها ومورفولوجيتها العامة بقيتا على حالهما ولم تتعرّضا إلى أيّ تشويه، وإنّما يقصد الكمّ الهائل من الكلمات التي انضاف إليها حديثًا والتي توجد جذور معظمها حيّة في لغة العرب القدامى[1]. وبالإضافة إلى هذين الكتابين أصدر بيلّا كتابًا آخر باللغة الفرنسيّة ألّفه بمعيَّة هيام أبي الحسين حول "شهرزاد باعتبارها شخصيّة أدبية"[2]، علمًا بأنه سبق لبيلّا أستاذًا زائرًا أنْ حدّث طلبة كلية التربية في طرابلس بليبيا عن شخصيّة شهرزاد في الأدب المعاصر[3]. أمَّا الدافع الذي جعله، على ما يبدو، يشترك مع هذه الباحثة في هذا التأليف، وهو تقليد في الحقيقة اتبعه في مقالات أنجزها بالتعاون مع غيره من الباحثين[4]، فهو التأثير الكبير الذي أحدثته حكايات

(1) تمهيد بيلاّ للمرجع نفسه (بالفرنسية)، ص 4.

(2) Hiam Aboul-Hussein-Chales Pellat, *Cheherazade : Personnage littéraire* ; 2 édition, Alger, Société nationale d'édition et de diffusion, 1981,

(3) الطيب العشّاش، "شارل بيلاّ"، ص 14.

(4) انظر مثلا مقال "فيل" الذي كتبه شراكة مع "روسكا" (J.Ruska) في د.م.إ، ج2، ط2، ص913-914. يقول الطيّب العشّاش في مقاله "شارل بلا، ص15-16" عن إيمان شارل بالتعاون مع زملائه: "أما الخاصية الرابعة فتتمثل في قدرته على العمل الجماعي. فقد اشترك مثلا مع كريمته "ايفات"، أو مع هيام أبي الحسين، ومع محمد حميد الله، ومع غيرهم في إعداد مقالات أو تحقيق كتب أو تأليف قواميس. ولعل أهم مثال على قدرته في هذا الميدان مساهمته في الاشراف منذ =

ألف ليلة وليلة في الثقافة الغربيّة حيث أصبحت مصدر إلهام خصب للكثير من الكُتَّاب والأدباء الأوروبيين، وتحوَّلت شهرزاد بطلة هذه الحكايات إلى "أسطورة" في الشرق والغرب على حدّ السواء، ما يجعل من الأهميّة بمكان في عصر شهد مؤلّفات كثيرة حول الأساطير العظمى للإنسانية الانشغال بها لأنّه، كما نقرأ في مقدّمة هذا الكتاب "لا يُقبل أن يقع إهمال الأدب العربي مرّة أخرى وتركه جانبًا"[1].

= منتصف الخمسينات على دائرة المعارف الإسلامية فالمقالات التي حرّرها وأمضاها باسمه عديدة وعديدة كذلك المقالات التي وعد بها جماعات ثم أخلفوا الميعاد فحرّرها هو وأمضى. فهو لا يؤمن بما أقرّه بعض الفقهاء "من أنّ العلماء بعضهم على بعض أشدّ تحاسدا من التيوس في زرائبها".

(1) مقدّمة كتاب "شهرزاد شخصيّة أدبيّة" (بالفرنسيّة)، ص 7.

بيلاّ: تلميذ الجاحظ وصديقه

اقترن اسم بيلّا بالجاحظ؛ ليس فقط لدى عشّاق أدب أبى عثمان وفكره من الأكاديميين وغيرهم من المثقفين في العالم العربي فحسب، بل كذلك في الأوساط الأكاديميّة الاستشراقيّة الغربية، ولا سيما لدى المختصّين منهم باللغة والآداب العربيّة. وكيف لا يقترن اسما العلمين، ونحن نعلم أنّ بيلّا لم ينفكّ يومًا منذ أواسط الثلاثينيات من القرن الماضي حتّى وافته المنيّة سنة 1992، أي زهاء الستّين سنة بالتمام والكمال عن الانشغال بمؤلّفات الجاحظ تحقيقًا ونشرًا وترجمة للبعض منها إلى الفرنسية، هذا علاوة على رسالة دكتوراه الدولة التي أنجزها حول تأثير مدينة البصرة، موطن أبي عثمان، في تكوين شخصيته الأدبيّة والفكرية، هذا دون أن ننسى بالطبع أنّ الجاحظ لا يكاد يغيب عن مئات المقالات التي حبّرها بيلّا وتناول فيها مواضيع شتّى من الثقافة العربيّة الإسلامية القديمة ونشرها في دائرة المعارف الإسلامية أو في مجلات علميّة مختصّة. وفي الحقيقة فإنّ تأثير الجاحظ في شارل بيلّا لا يخفى

على أحد من الذين انكبوا على قراءة كتبه ومقالاته، خاصة مذكراته التي وإنْ لم تخل من مقاطع يعبّر فيها - وهو يسرد علينا سيرة حياته - عن سخطه وتبرّمه من بعض ما حدث له من مصاعب ومكائد ومظالم بسبب الحسد؛ سواء في الجيش والجامعة، أو في أماكن أخرى من نشاطاته المهنيّة[1] - ولَعلَّ الجاحظ لم يغب عن ذهنه حتّى في هذه الحالة وهو الذي تعرّض مثله إلى الكثير من الدسائس والمكائد من كُتّاب عصره وأصحاب مهنته والتي نجد لها صدى في البعض من رسائله، مثل رسالتي الحاسد والمحسود والتربيع والتدوير اللتين يعرفهما بيلّا حقّ المعرفة -، هذا السخط الذي قد يعود كذلك إلى الظروف التي كتب فيها بيلّا سيرته قبل وفاته بقليل وقد أنهكه المرض ونال منه العجز، فإنّ مذكراته لم تخل كذلك من روح الدعابة والفكه وميله إلى قصّ النوادر والطرف التي تعرّض لها في حياته على طريقة أستاذه الجاحظ وبوحيٍ منه. ولا يذهب بأحد الظنّ أنّ إطلاق صفة أستاذية الجاحظ على بيلّا هي صفة أطلقها عليه غيره كما أُطلق عليه في بيروت لقب "صانع الدكاتره"، وإنّما هي صفة اختارها لنفسه عن وعي واختيار

(1) انظر: سيرة مستعرب، ص41، ص61-62، ص64 ص67، ص86، ص98 .

كما ورد على لسانه وهو يُعرّف بنفسه في مذكراته قائلاً: "باعتباري تلميذ الجاحظ"[1].

لم يفت بيلّا أكثر من مرّة التعبير عن اعتزازه بالجاحظ وإعجابه به، فالقرون العشرة وأكثر التي تفصله عنه لم تمنعه من اعتباره صديقه. وتعبير "صديقي الجاحظ" كثيراً ما كان يتردّد على لسانه[2]، ولا غرابة في ذلك، فالرجل ربطته عشرة طويلة به من خلال مؤلّفاته امتدّت طوال حياته تقريبًا، ولربّما لم يعاشر بيلّا أحدًا مثل الجاحظ، ما عدا زوجته وابنته، ما جعله يشعر بقرابة شديدة معه، كما يشعر أنّ كلّ ما يمسّ الجاحظ يمسّه هو شخصيًّا حتّى أنّه لما أعلمه، في سنة من السنوات، المسؤول عن صدور مجلّة المكتبة التي كانت تُصدر في بغداد أنّ الحكومة العراقيّة تفكّر في إقامة تمثال للجاحظ اعترافًا بعبقريته وتخليدًا لذكراه لم يتردّد في أن يدلي بدلوه في المسألة ويكتب إليه رسالة يُحذِّر فيها من مغبّة ارتكاب مثل هذه الحماقة، غيرة على صديقه وأستاذه الذي

(1) المصدر نفسه، ص107.

(2) المصدر نفسه، ص70 وانظر مثلا مقال "تنوّع في موضوع الأدب" (بالفرنسيّة) الذي يستعمل بيلّا في فاتحته تعبير "صديقي الجاحظ"، ص19.
«Variations sur le thème de L'adab» *in Etudes sur l'histoire socio-culturelle de L'Islam» (VI Ie, XVes.)*, London, Variorum Reprints, 1976, pp.19.

يصفه بالرجل العظيم ويخشى عليه من التشويه ويرغب في أن يحفظ له وجاهته. وهنا لا ينبغي أن ننسى أنّ بيلّا قد كتب فيه يومًا مقالاً بعنوان "أصالة الجاحظ"[1]، هذه الأصالة التي لا يراها بيلّا في أدبه وفكره فقط، وإنّما كذلك في جسده ووجهه بالخصوص الأصيل والجميل في دمامته. يقول بيلّا في هذه الرسالة: "لقد كان أبو عثمان على دمامةِ خِلْقةٍ صارت مضرب الأمثال، ما يجعل من كلّ نحّاتة يحترم هذه الحقيقة في تمثيل صورته سيُعرّض نفسه لسخرية الجمهور، وإذا ما نحت له صورة على هواه [يجمّله فيها] لن يمكننا تبعًا لذلك أن نتعرّف فيها على ملامح هذا الرجل العظيم"[2]. لا يعلم بيلّا -كما يقول - إذا ما كان احتجاجه المكتوب على فكرة نصب تمثال للجاحظ الذي نُشر في مجلة المكتبة العراقيّة قد وقع أخذه بعين الاعتبار أم لا، ولكن العراقيين[3]، كما يضيف قائلاً: "كانوا منشغلين بأمور أخرى وأعتقد أنّه لم تقع متابعة مشروع الحكومة لتكريم الجاحظ على هذا النحو. لم تتح لي الفرصة لأعاين الأمر على عين المكان، لاسيما أنّه خلال مسيرتي

(1) هو في الأصل محاضرة ألقاها بيلاّ بالفرنسيّة في مدينة الرباط بالمغرب: انظر سيرة مستعرب، ص51 وقد قام ابراهيم الكيلاني بتعريبها: انظر الجاحظ، (الملحق) دار الفكر، دمشق، ط1، 1985، ص357-390.

(2) سيرة مستعرب، ص74.

(3) يقصد الحكومة العراقيّة آنذاك.

الأكاديمية الطويلة لم أزر بغداد إلّا مرّة واحدة فقط، وأضعت فرصتين للتحوُّل إلى البصرة حيث من المفترض أن يُنصب تمثال الجاحظ هنالك. ففي المرّة الأولى تراجعت عن السفر إلى مدينة الجاحظ وموطنه بعد أن أعددت مداخلة حول مِرْبد المدينة؛ حيث كانت تحطّ القوافل في القرنين الأوّل والثاني للهجرة ويأتي علماء اللغة لجمع مدوّناتهم اللغوية والتقاطها من أفواه البدو العابرين من هنالك، ويلقي الشعراء قصائدهم أمام جمهور مولع بالشعر[1]. أمّا في المرّة الثانية فقد أرسلت مداخلتي إلى المشرفين على ندوة كانت مخصّصة للجاحظ وكانوا يعتزمون تنظيمها في أكتوبر 1980 ولكن اندلاع الحرب بين العراق وإيران حال دون ذلك"[2].

تعود علاقة بيلّا بالجاحظ إلى مرحلة مبكّرة من حياته. فقد اكتشفه أول مرَّة في مراكش وعمره لم يتجاوز العشرين سنة عندما كان مدرّسًا للغة العربيّة سنة 1934 في إحدى إعدادياتها ومنشغلاً، في ذات الوقت، بشهادة الأدب العربي التي كان يستعدّ لأن يُمتحن فيها، وهي الشهادة التي كانت تنقصه للحصول على الإجازة وكان من ضمن المقرّرات المبرمجة في هذه الشهادة مقرّرٌ متعلّق بكتاب البخلاء للجاحظ

(1) يتحدّث بيلاّ عن البصرة ومربدها في القرون الثلاثة الأولى للهجرة.
(2) سيرة مستغرب، ص74.

الذي لم يكن يعرفه - كما يقول - ويأسف لذلك، فأسقطه من حساباته وفضّل عليه مقرّرًا آخر متعلّقًا بكتاب كليلة ودمنة لابن المقفّع، ولكنّه قرَّر أن يعود لاحقًا إلى البخلاء الذي لاقى هوى في نفسه للانشغال به بصفة جدّية عندما تُتاح له الفرصة لذلك[1]. وهذا ما تمّ له فعلاً بعد خمس سنوات وبُعيد مدّة قصيرة من حلوله بدمشق سنة 1939 لما شاءت المصادفة أن يهديه أساتذة سوريون نسخة من كتاب البخلاء الذي سهروا على تحقيقه ثم نشره في تلك الفترة. يروي بيلّا في مذكّراته تفاصيل عودته إلى بخلاء الجاحظ؛ مذكّرًا أنّه منذ إقامته بمراكش وحصوله على شهادة الأدب ظلّ عنوان هذا الكتاب يطارده دون هوادة، لاسيما أنّه خلال إقامته بالجزائر بعد ذلك كان السيّد فالا (Valat) المبرّز في اللغة والآداب العربيّة وصاحب الخبرة قد نصحه بأن يعدل عن فكرة اختيار اللغة البربريّة[2] موضوعًا لرسالة دكتوراه، وأن يتوجه بصفة أساسيّة إلى إعداد رسالة حول الجاحظ ومؤلفاته يتبعها بترجمة لكتاب البخلاء إلى الفرنسيّة. وهكذا وجد نفسه ينصرف إلى هذه

(1) المصدر نفسه، ص30.

(2) رأينا أنّه من الضروري الالتزام بتعريب المصطلحات كما يستعملها بيلاّ. فهو يتحدّث عن اللغة البربرية (Berbère). اللسانيون اليوم يستعملون مصطلح "الأمازيغية" الذي يستعمله الناطقون بها للدلالة على لغتهم.

المهمّة محاولاً فهم الكتاب وترجمته[1]. يقول بيلّا: "لم يكن مساعدي الممتاز أنطوان سجان (Antoine Séjean) يفهم أفضل منّي كتاب البخلاء الذي يصعب فهمه، وكنت كثيرًا ما أسأل زائريّ [من العرب] عن بعض المقاطع التي أشكلت عليّ فيه دون أن أجد في إجاباتهم ما يشفي غليلي. كلّهم يتوجّهون إليّ بالقول: "تريد أن تعرف ماذا يعني هذا الكلام؟ قبل أن يبدؤوا في اقتراح تفسيراتهم لنفس المقطع التي كانت تختلف من واحد إلى آخر.. لقد لاحظت خلال إقامتي بدمشق، وهو ما تأكّد لي لاحقًا، أنّ الناطقين بالعربيّة [2]؛ بما في ذلك الأكثر تعلُّمًا وثقافة؛ كانوا مولعين بالأدب ولكن لا يفهمون كثيرًا في الشعر العربي القديم"[3]. غير أنّ صدور طبعة مدرسيّة في القاهرة لكتاب البخلاء - في تلك الفترة التي كان بيلّا

---

(1) يعتقد العشاش أنّ عدول بيلاّ عن البربريّة وانصرافه لدراسة مؤلفات الجاحظ كان بتأثير من "ماسينيون": انظر مقاله "شارل بيلاّ"، ص10، ولكن لا أثر لما يقوله العشاش في سيرة بيلاّ الذاتيّة حيث يؤكّد على تأثير الأستاذ فالا (Valat) في عدوله عن البربرية واختياره مواصلة دراسته في الآداب العربيّة والانشغال بالخصوص بالجاحظ ومؤلّفاته. انظر سيرة مستعرب، ص50.

(2) يستعمل بيلاّ مصطلح "الناطقون بالعربيّة" للدلالة على العرب لكونه يعتقد أنّ الكثير ممّن يطلقون على أنفسهم تسمية عرب هم ليسوا كذلك.

(3) سيرة مستعرب، ص50-51.

يحاول ترجمته إلى الفرنسيّة - عمل ناشروها على إيضاحها بشروحات كافية تنمّ - حسب قوله - عن بحث استثنائي لفهم الكتاب على أحسن وجه قد ساعده على إنجاز مهمّته كما يشهـد بذلـك[1]. لم يكتف بيلّا بترجمة كتاب البخلاء إلى الفرنسيّة ونشره سنة 1951[2] مثريًا هذه الترجمة بملاحظاته وشروحاته النابهة التي وضعها في هوامش صفحات الكتاب ولا تقلّ أهمّية أحيانًا عن الكتاب نفسه، وإنّما صدّرها بمقدّمة لم تفقدها العقود السبعة التي مضت على كتابتها أهمّيّتها البالغة لكونه عرض فيها المصاعب الجمّة التي اعترضته في ترجمته[3] وهي في الحقيقة المصاعب التي تعترض كلّ القرّاء، بما في ذلك العرب، لهذا الكتاب والناتجة عن التشويهات التي لحقته كما يلاحظ بيلّا من ناسخيه عبر القرون، وكذلك لوفرة الأبيات الشعريّة التي يستحيل الرجوع بها إلى مصادرها

(1) المصدر نفسه، ص50-51.

(2) *Le Livre des Avares*, Traduction et notes par Charles Pellat, Beyrouth, commission internationale pour la traduction des chefs-d'œuvres- Paris, Maisonneuve, 1951.

(3) وحتّى يحدّ من هذه المصاعب استثنى في ترجمته الأربعين صفحة الأخيرة من الكتاب التي خصّصها الجاحظ من خلال الشعر للأطعمة عند العرب وهي في اعتقاد بيلاّ لا صلة لها بنوادر البخلاء وأقوالهم النثريّة ويمكن أن تشكّل بمفردها كُتيّبا مستقلّا بذاته.

الأصليّة التي استقاها منها الجاحظ وتترك المترجم والمحقّق لهذا الكتاب معلّقًا في حالة من الشكّ [الدائم] القاسي على نفسه[1]. عرض بيلّا في هذه المقدَّمة عرضًا نقديًّا لكلّ طبعات كتاب البخلاء خلال النصف الأوّل من القرن العشرين، أي منذ الطبعة الأولى التي أعدّها وسهر عليها المستشرق "فون فلوتـن" (Von Vloten) قبـل أن يصدرها سنة 1900، ثمّ الطبعات التي تلتها تباعًا في العالم العربي مبرزًا عدم خضوع جلّها للشروط العلميّة اللازمة، تحقيقًا وطبعًا ولكن، مستثنيًّا طبعة كلّ من أحمد العوامري وعليّ الجارم في القاهرة عن دار الكتب المصريّة (1938–39)، ومثنيًا على جهودهما في إيضاح النصّ بإعراب الأفعال والكلمات التي يتطلَّب فهمها ذلك، ومنوّهًا كذلك بوفرة الملاحظات والشروح التي أنارا بها النصّ ووضعاها في هوامش صفحات الكتاب، وهو ما ساعده كثيرًا لكونه كما يقول: "كلما التبس عليَّ مقطع إلّا وعدت إليهما التماسًا للمساعدة. فقد شعرت أنّني أتّكئ على مرجعين يمكن الاطمئنان إليهما، فهُما عالمان عربيّان معاصران ولا أحد أفضل منهما [بما في ذلك أنا] في معرفة لغتهما ورصد بعض الدقائق التي يمكن ألّا أتنبه إليها"[2]. وهو نفس الثناء الذي

(1) شارل بيلاّ، مقدّمة ترجمته لكتاب البخلاء إلى الفرنسيّة، ص 2.
(2) المقدّمة نفسها، ص3–6.

يكيله لطه الحاجري الذي وفّر للقارئ طبعة أخرى سنة 1948 عن دار الكتاب المصري في القاهرة، وهما الطبعتان اللّتان اعتمد عليهما بيلّا في ترجمته للبخلاء. وفي خاتمة هذه المقدّمة لم يجد بيلّا أفضل من ملاحظات "ويليام مارسيه" (William Marçais) ليمهّد بها إلى ترجمته. لقد كشف كتاب البخلاء -كما يقول بيلّا-: "عن شغف مؤلّفه بالملاحظة وولعه بالجزئيات الدقيقة والنمطيّة وميله، وهذا الأهمّ، إلى التحليل النفسي للشخصيات وطبائعها.. وخلاصة الأمر فمن هذا الكتاب يمكن أن يُولد أدب واقعي مهمّ [بالمفهوم الحديث للكلمة]"[1]؛ متسائلاً معه: "كيف ولماذا تاه هذا المصدر المثير للالتباس، ولكنه المنعش والمتدفّق بالحياة خلال القرون التي تلت كتابته في مستنقع المقامة التقليديّة الباهتة التي تبعث على الضجر"[2]. يقول بيلّا: "لا يمكنني الإجابة، ولكنّ هذا الموضوع جدير بأن نقترحه للبحث على مؤرّخي الأدب العربي في المستقبل؟".[3] لقد فتح كتاب البخلاء شهيّة بيلّا لمزيد من الاهتمام بالجاحظ ومؤلّفاته. ولمعاشرته هذا الكاتب الطويلة أنس أسلوبه وخبر

(1) المقدمة نفسها، ص8.

(2) لعلّ مارسيه ينطلق في حكمه على المقامة من خلال أسلوبها المتصنّع واعتمادها على الزخرفة اللغويّة وسجعها الرتيب الذي يفقدها العفويّة التي يتميّز بهما الأدب الواقعي.

(3) شارل بيلاّ، مقدّمة ترجمته لكتاب البخلاء إلى الفرنسيّة، ص 9.

منهجه وطريقته في التفكير، فقرَّر تبعًا لذلك أن يعدَّ رسالة دكتوراه تتعلَّق بأثر بيئة البصرة في تكوينه الأدبي والفكري صدرت لاحقًا في كتاب[1]. لقد عبَّر بيلّا في تمهيده لهذه الرسالة عن إعجابه - كما يقول - بيقظة أبي عثمان وفضوله المعرفي المذهل الذي جعله يمتلك رؤية شخصيّة للعالَم قادته إلى مشارف الشكّ، وهي خصوصيّة جاحظيّة دفعت مستشرقًا ألمانيًّا لا يمكن الاشتباه فيه إلى أن يقارنه بفولتير (Voltaire) حتّى وإن كان ينبغي الإحجام عن هذه المقارنات في نظر بيلّا كونها عديمة الجدوى. وعلى أيّ حال إذا ليس ثمّة بدّ من مقارنة الجاحظ بكُتّابٍ غربيين كبار، فينبغي، كما يضيف بيلّا، البحث عنهم ضمن كُتّاب النزعة الإنسانية (humanistes). يقول بيلّا: "عادة ما يُذكّرنا أبو عثمان فعْلاً بفولتير، ولكن بما أنّ بعض المقاطع من مؤلّفاته تشبه بعض ما ورد في مؤلّفات رابليه (Rabelais) ولافونتان (La fontaine) ولابريار (La Bruyére) وموليير (Moliére) وديكارت (Descartes) وحتّى داروين يمكننا على هذا النحو أن نسرد كُلّ كُتّاب الإنسانيّة العظام الذين نجد لديهم ما يُذكّرنا بالجاحظ"[2].

(1) *Le Milieu Basrien et la formation de Ǧāḥiẓ* , Paris, Adrien-Maisonneuve, 1953.

(2) المرجع نفسه (بالفرنسيّة)، ص9.

تُعتبر هذه الرسالة التي حرّرها بيلّا بالفرنسيّة ونُشرت في باريس سنة 1953[1]، قبل أن تُنقل إلى العربيّة لاحقًا[2]، أهمَّ البحوث التي أنجزها بيلّا طوال مسيرته الأكاديميّة. وقد عبّر عن اعتزازه بهذا العمل الذي لم يعف عليه الزمن - كما يقول في نهاية حياته - رغم مرور أربعة عقود على إنجازه، وحجّته في ذلك هو مواصلة الاعتماد عليه والاهتداء به من قِبَل الباحثين في أدب الجاحظ والمنشغلين بآثاره.[3] لا نرى فيما يقوله بيلّا إطراء مبالغًا فيه لنفسه، فعلى الأرجح ستظلّ رسالته هذه لعقود أخرى مرجعًا لا غنى عنه لكلّ الباحثين في بدايات تشكُّل البنى الأدبيّة والفكريّة - السياسيّة والعقدية العربيّة الإسلاميّة في القرون الأولى للهجرة، وبالخصوص في تراث الجاحظ، بما في ذلك المجدّدون منهم، والذين لم تعد رسالة بيلّا - ربما - تشفي غليلهم في معرفة أجدّ بأدب أبي عثمان وفكره يتكئون فيها على مناهج جديدة بعضها لم يكن متاحًا في عصر بيلّا، وبعضها الآخر كان في متناوله ولكنّه كان

(1) *Le Milieu Basrien et la formation de Ǧāḥiẓ*, Paris, Adrien-Maisonneuve, 1953.

(2) ترجمها ابراهيم الكيلاني الأستاذ بكلية الآداب، بجامعة دمشق وأضاف إليها في الملحق مقالين عن الجاحظ كتبهما بيلاّ لاحقا. صدرت هذه الترجمة بعنوان "الجاحظ" عن دار الفكر، دمشق في طبعة أولى سنة 1985.

(3) انظر: سيرة مستعرب، ص 66.

يجهله أو أنّه أعرض عنه لطبيعة تكوينه الفيلولوجي الذي جعله ينشغل أكثر بفهم مفردات النصوص العربيّة دون محاولة تأويل هذه النصوص والذهاب بعيدًا في تأويلها سوسيولوجيًّا وانثروبولوجيًّا. فحتّى مَن تحدوهم رغبة التجديد إلى النظر إلى الجاحظ ومؤلفاته وتجاوز ما توصَّل إليه بيلّا في دراساته منذ أكثر من نصف قرن؛ سواء من الباحثين العرب أو المستعربين؛ لا غنى لهم عن هذه الرسالة والتزوّد منها بما يخدم غرضهم ويساعدهم على إعادة قراءة آثار الجاحظ قراءة منفتحة على العلوم الإنسانيّة التي تطوّرت تطوّرًا مذهلا منذ أن أصدر بيلّا كتابه إلى اليوم، أي خلال السبعة العقود الأخيرة[1]. لم ينفكّ بيلّا طوال حياته عن التذكير بالألفة التي تشكَّلت بينه وبين الجاحظ كما في مذكّراته التي كتبها قبل وفاته بقليل، هذه الألفة التي - كما يقول عنها قبل ذلك بأربعة عقود في مقدّمته لرسالته- قد توطَّدت بفعل معاشرة طويلة لآثاره؛ سواء المطبوعة منها أو المخطوطة[2].

(1) هذا ما عشته شخصيًا. فمنذ ثلاثين سنة عندما هممت بتأليف رسالتي في الكفاءة في البحث حول بخلاء الجاحظ من زاوية علم اجتماع الأدب لم أجد أفضل من بيلاّ لأعود إلى رسالته للدكتوراه لفهم طبيعة العصر الذي نشأ فيه الجاحظ وبخلاؤه" انظر. محمد الجويلي، نحو دراسة في سوسيولوجية البخل، تونس، الدار العربيّة للكتاب، 1990، ص 10.

(2) انظر مقدّمة بيلاّ لرسالته: "أثر بيئة البصرة في تكوين الجاحظ الأدبي والفكري" (بالفرنسيّة)، ص7.

مقالات بيلاّ حول الجاحظ ومن وحيه

لا يكاد الجاحظ يغيب عن كلّ المقالات التي كتبها بيلاّ والتي تُعدّ بالمئات والمتعلقة بالحضارة العربيّة الإسلاميّة. فعندما عُرض عليه أن يختار بنفسه باقة من مقالاته سبق له أن نشرها في مجلّات علميّة مختصّة لإعادة نشرها في مجلّد واحد[1] وجد بيلاّ نفسه في حيرة من أمره ليلبّي هذا الطلب، ولكنّه سرعان ما وجد كالعادة ضالته وبوصلته في الجاحظ الذي هداه إلى هذه الباقة من واحد وعشرين مقالاً معظمها، إنْ لم يكن أبو عثمان معنيًّا بها مباشرة، فهو إمّا ملهمه في كتابتها أو يعتمد على مؤلّفاته مصدرًا لكتابتها. سننشغل في هذا الفصل أوّلاً بالمقالات التي انتقاها بيلاّ لهذا الكتاب وخصّصها لأبي عثمان كما يظهر ذلك جليًّا من خلال عناوينها،

(1) عنوان هذا الكتاب ورد بالفرنسيّة مع أنه ضمّ فيه بعض مقالات كتبها بيلاّ باللغة الفرنسيّة وباللغتين الانجليزية والاسبانية وهو التالي:
«Littérature arabe et problèmes de littérature comparée» in Etudes sur l'histoire socio-culturelle de L'Islam» (VI Ie, XVes.), London, Variorum Reprints, 1976, pp 3-15.

كما سنهتمَّ كذلك بالمقالات الأخرى التي وردت، سواء في هذا المجلّد أو لم ترد فيه لاسيما الكثير من مقالاته التي صدرت في الطبعة الثانية من دائرة المعارف الإسلاميّة، بأجزائها المتعدَّدة، والتي أوحى إليه الجاحظ بكتابتها أو التي تكون مؤلّفاته مصدرًا أساسًا من مصادرها.

لهذا المجلّد اختار بيلّا ستّ مقالات تتعلَّق بالجاحظ وصدرت بالفرنسيّة نشرها في مجلات علميّة مختصة مختلفة[1]. وباستثناء مقالته: "الجاحظ في بغداد وسامرّاء" الذي هو عملٌ تعهَّـد بـه سابقـًا وأعلـن عنه في رسالته للدكتوراه واعدًا بأن يقتفي فيه آثار الجاحظ فـي هاتين المدينتيـن، وفـي علاقتـه خاصـة بالخليفتيـن: المأمـون والمتوكّـل، وبـوزراء الدولة

(1) «Ğāḥiẓ à Baġdād et à Sāmarrā» in *Rivista degli Studi orientai, XXVII* (Rome,1952)- «L'mamat dans la doctrine de Ğāḥiẓ» in *Studia Islamica* XV (Paris, 1961- «christologie Ğaḥiẓenne» in *Studia Islamica*, XXXI, (Paris, 1970- «Ğāḥiẓ et les Khāridjites» in *Folia Orientalia*, XII (Varsovie,1970)-«al-Ğāḥiẓ; Les nations civilisées et les croyances religieuses» in *Journal asiatique*, CCLV, (Paris, 1967) «al- Ğāḥiẓ et les peuples du sous-continent» in *Oientalia Hispanica, Sive studia F .M.* Pareja octogenario dicata à Leyde 1974).

نقترح تعريبها أوّلا بأوّل كما وردت أعلاه باللغة الفرنسيّة كما يلي: "الجاحظ في بغداد وسامرّاء "-الإمامة في مذهب الجاحظ [السياسيّ والدينيّ] –"الجاحظ والنصرانيّة"- "الجاحظ والخوارج"- "آراء الجاحظ في الأمم المتحضّرة والعقائد الدينيّة" وأخيرا "الجاحظ و شعوب شبه القارة الهنديّة".

العباسية الذين كان على صلة وثيقة بهم، بل يرتزق بما أهداه لبعضهم من الكتب، وتجنُّده تبعًا لذلك لخدمة هذه الدولة والذود عنها، فما يجمع ما تبقى من المقالات وهي خمس، على اختلاف مضامينها، هو اهتمام بيلّا بآراء الجاحظ السياسيّة والدينيّة. وفي الحقيقة فقد أكّد بيلّا في مقاله السالف الذكر والذي صُدّر به كتاب "دراسات في التاريخ الاجتماعي والثقافي للإسلام: من القرن السابع إلى القرن السابع عشر ميلاديًّا[1] حتّى يكون - ربّما- بمثابة تمهيد للمقالات التي ستليه، على أنّ شهرة الجاحظ والسبب الذي جعله ينتقل من البصرة إلى الإقامة في بغداد هو تحبيره رسالة في الإمامة بلور فيها نظريته في الخلافة لاقت هوى في نفس المأمون الذي لم يكن قد فات زمن طويل على اعتلائه سدّة الحكم[2]، ومن ثمّة، كان لا بدّ من أن يذهب أبعد من ذلك في الانشغال بمسألة الإمامة في مؤلّفات الجاحظ السياسيّة والدينيّة في مقال مستقلّ بذاته "الإمامة في مذهب الجاحظ"[3] لكن دون أن

(1) لا بدّ من التنبيه على أنّ ترقيم صفحات مقالات بيلاّ التي جُمعت وصدرت في هذا الكتاب لا تخضع للترقيم المعهود في الكتب. فقد اختار ناشرها أن تظلّ أرقام صفحات كلّ مقال كما هي عليه، أي كما بدت به في المجلّات التي نُشرت فيها واقتطفت منها.

(2) "الجاحظ في بغداد وسامرّاء" في دراسات في التاريخ الاجتماعي والثقافي للإسلام (بالفرنسيّة)، ص47، ص53.

(3) "الإمامة في نظريّة الجاحظ" (بالفرنسيّة) في التاريخ الاجتماعي والثقافي للإسلام/ ص 23-52.

ينسى بأن يستهلّه بالتذكير بما كان قد ردّده أكثر من مرَّة في مقاله السابق حول إعجاب المأمون برسالته في الإمامة[1]. غير أنّ بيلّا في هذا المقال عمل على أن يتتبَّع آراء الجاحظ في جلّ مؤلّفاته التي تطرّق فيها إلى الإمامة؛ سواء بصفة مباشرة أو غير مباشرة، مثل كتاب الجوابات في الإمامة وكتاب العثمانيّة؛ مؤكّدًا ولاءه التام للعبّاسيين، ومن ثمّة معارضته للأمويين ومَن يحنّ إلى ذكراهم في عصره من النوابت والحنابلة[2]، تمامًا مثل مناوأته للشيعة الإماميّة التي عبّر عنها بجلاء في كتاب العثمانيّة منسجمًا في كلّ ذلك مع معتقداته المعتزليّة التي جعلته - كما يرى بيلّا في مقاله "الجاحظ والخوارج"- يعارض كلّ المذاهب التي تختلف آراؤها مع المعتزلة حتّى وإن أبدى تعاطفًا مع هذه الفرقة بالتنويه بشجاعة رجالها ونسائها وزهد نُسّاكها ونبوغ شعرائها؛ ليس فقط بسبب اشتراكه معها في معاداة الأمويين وأنصارهم في عصره، وإنّما كذلك لكونهم يشاطرون المعتزلة بعض آرائهم العقديّة مع عدم إهمال بيلّا عرض بعض الاختلافات بين الفرقتين[3]. غير أنّ

(1) المقال نفسه، ص24 .

(2) انظر حول موالاة الأمويين في العصر العباسي: مقال بيلاّ "تعظيم شخصية معاوية في القرن الثالث للهجرة" في دراسات في التاريخ الاجتماعي والثقافي للإسلام (بالفرنسيّة)، ص59 .

(3) "الجاحظ والخوارج" في دراسات.. ـ ص 195- 209.

آراء الجاحظ السياسيّة والعقديّة المعتزليّة لا تقف في حدود الداخل الإسلامي والجدل مع الفرق الإسلاميّة المختلفة مع مذهبه فقط، وإنّما تتوجّه إلى خارج الدائرة الإسلاميّة من الأقوام والملل الأخرى، فلا ننسى أنّ المعتزلة، وقد شعرت بعجز الفرق الأخرى عن الدفاع عن الإسلام لافتقارها إلى فكر قادر على النهوض بهذه المهمّة، قد اعتمدت على المنطق ومبادئ العقل لما يوفّرانه من الحجج الدامغة لإنجازها على أحسن وجه، ولذلك اهتمّ بيلّا في مقال "الجاحظ والنصارى" بآراء الجاحظ الداحضة للعقائد المسيحية، وبإبراز، من منطلق إسلامي بالطبع، تهافتها مبرزًا أنّ أبا عثمان كان من أوائل المسلمين الذين كتبوا عن النصرانيّة، ولكنه -ربّما على خلاف غيره- قد نقد، كما يقول: "البشر وليس النصوص، والمفسّرين وليس الأنبياء، بل إنه أمسك نفسه في نقده للنصرانيّة عن اتهام النصارى بالتحريف"، وهو ما جعله يُتّهم من ابن قتيبة في كتابه "تأويل مختلف الحديث" بأنّه قدّم بهذا النقد خدمة للنصارى أكثر ممّا قدّمها للمسلمين، بأن نبّههم إلى ما يجهلونه في دينهم [لتلافي نقائصهم وسدّ الثغرات التي يهاجمهم منها خصومهم][1]، وهو رأي يلمح بيلّا إلى تهافته في قوله: "ومع ذلك يُعتبر جاحظنا

(1) "الجاحظ والنصارى" في دراسات، ص 219-221.

المعتزلي مسلمًا جيّدًا"[1]. وإذا علمنا أنّ البوصلة التي تقود الجاحظ في نظرته إلى العالم والإنسان هي عقيدته المعتزليّة من ناحية، وولاؤه للعبّاسيين من جهة أخرى، أدركنا الخيط الرابط بين كلّ هذه المقالات التي كتبها بيلّا حول أبي عثمان وتناولناها بالعرض وما تبقّى منها؛ أي مقالتي: "آراء الجاحظ في الأمم المتحضّرة والعقائد الدينيّة"، و"الجاحظ وشعوب شبه القارة الهنديّة"[2]. يقرّ الجاحظ بأنّ الأمم المتحضّرة التي تتميز بالأخلاق والأدب والحكمة والعلم، هي العرب والهند والفرس والروم، وما عدا ذلك فهمج. وكما يلاحظ بيلّا فإنّ هذا الترتيب سيتغيّر لدى الجاحظ في سياق آخر حيث يحافظ العرب على صدارتهم للأمم المتحضّرة في حين يُدحرج الفرس إلى ذيل القائمة، ويظلّ الهند على مكانتهم الثابتة في طليعة الأمم المتحضرة بعد العرب لحكمتهم وتميّزهم في الطبّ وعلم الفلك والحساب ولخصالهم التي عدَّدها الجاحظ وكرّرها بيلّا في المقالين المذكورين[3]. ومن البديهي أن يكون الجاحظ قد عمد إلى الاستنقاص من قيمة الفرس رغم إقراره، في إيجاز

---

(1) المرجع نفسه، ص220.

(2) يستعمل بيلاّ المصطلح الفرنسي "Sous-continent" ويُشار به إلى شبه القارة الهنديّة.

(3) "الجاحظ والأمم المتحضرة والعقائد الدينيّة"، ص 67 .
"الجاحظ وشعوب شبه القارة الهنديّة"، ص 545.

شديد كما يلاحظ بيلّا، بتحضّرهم، لاسيما تمرُّسهم بإدارة دواليب الدولة[1]، ليثبت تفوّق العرب عليهم، وتصدّيًا منه لنزعتهم الشعوبيّة التي تدفعهم إلى محاولة الانقلاب على السلطة العبّاسية وإزاحة العرب عن الحكم، كما أشار إلى ذلك بيلّا أكثر من مرّة في رسالته للدكتوراه التي سبق أن عرضنا لها. أمّا عن الروم، وهو يقصد في الحقيقة البيزنطيين الذين يخلط بينهم وبين الإغريق كما يلاحظ بيلّا، فهم يشكّلون نفس الخطورة التي يشكلها الفرس على العرب، ولذلك فإنّ إشادة الجاحظ -بالإضافة إلى تميزهم في الفلسفة والعلوم- بمهارتهم اليدويّة ودهائهم في الحرب له أكثر من دلالة على حد قول مستعربنا الفرنسي[2]، في حين أنّ الهند لا يشكّلون أيّ خطورة على العرب من الناحية السياسيّة؛ ولذلك أطنب الجاحظ في الإشادة بما سماها "كتب الهند" الأدبية الحكميّة، مثل كليلة ودمنة، وذكائهم وشجاعتهم ومهارتهم في لعبة الشطرنج وفي صناعة الأسلحة، وبراعتهم في الموسيقى والرقص؛ إلى غير ذلك من فضائلهم التي عدّدها الجاحظ وانشغل بها بيلّا عرضًا وتحليلاً في هذا المقال[3]، ما

(1) "الجاحظ والأمم المتحضّرة"، ص 72.
انظر كذلك حول إشادة الجاحظ في اقتضاب شديد كذلك بقدرة الفرس على الخطابة: "الجاحظ وشعوب شبه القارة الهنديّة"، ص548.
(2) "الجاحظ والشعوب المتحضّرة"، ص72.
(3) انظر "الجاحظ والشعوب المتحضرة"، ص 70-71 وكذلك "الجاحظ وشعوب القارة الهنديّة"، ص545.

جعله يكرّر ما تعلّق بالهند في مقاله الآخر "الجاحظ وشعوب القارة الهنديّة" الصادر سنة 1974 ما سبق له أن ذكره في مقال "الجاحظ والشعوب المتحضّرة" الصادر سنة 1967. وهكذا، فإنّ دفاع الجاحظ عن العرب وأفضليتهم على الأمم المتحضّرة مثلهم، ما هو في حقيقة الأمر إلّا دفاع عن أحقيتهم بقيادة العالم في عصره، هذه القيادة التي أفضل من يجسّدها هم العباسيون وإمبراطوريتهم المترامية الأطراف. بيد أنّ العرب لم يكونوا جديرين بذلك إلّا بالإسلام، ولكن ليس الإسلام كما فهمه الشيعة والحنابلة من النوابت ولا حتّى الخوارج، وإنّما هو الإسلام كما فهمه دعاة العقل المعتزلة الذين كان الجاحظ أحد أئمتهم وكان خلفاء بني العباس: المأمون والمعتصم والواثق من مريديهم. ومن هنا يصل الجاحظ الدفاع عن كلٍّ من العروبة والإسلام بالدفاع عن بني العبّاس. لذلك نفهم السبب الذي جعل بيلّا يُبرز تصدّي الجاحظ، بواسطة العقل وحججه المنطقيّة، لعقائد الهند الدينيّة المزدكيّة والبوذيّة وغيرها، ويدحضها ويبيّن تهافتها وعدم مطابقتها للعقل في مقاليه المذكورين[1]، كما سبق له أن تصدّى للعقائد النصرانيّة الروميّة وللعقائد الفارسية، مثل المجوسيّة والزرادتشية[2]،

(1) انظر "الجاحظ والشعوب المتحضّرة"، ص66، ص73 "الجاحظ وشعوب شبه القارة الهنديّة"، ص546-547.

(2) "الجاحظ والشعوب المتحضّرة"، ص 74-75.

رغم إشادته بتحضُّر كلّ هذه الأمم ليصل، في نهاية المطاف، إلى إبراز أفضلية العقيدة الإسلاميّة، من منطلق اعتزالي بالطبع على معتقدات هذه الشعوب وتمثّلاتها للمقدّس.

غير أنّ الجاحظ، وإنْ لم يحضر في كلّ مقالات بيلّا العلميّة بصفة مباشرة كما رأينا، فهو لا يكاد يغيب عن معظمها؛ إمّا باعتباره قادحًا لكتابتها وملهمًا لها، وإمّا لكون مؤلفاته تُعتبر قطب الرحى فيها والمحور الذي تدور عليه أفكاره فيها. إنّ المقالات التي أوحى إليه أستاذه الجاحظ بكتابتها كثيرة. وما دمنا قد تحدّثنا عن مجلّد "دراسات في التاريخ الاجتماعي والثقافي للإسلام"؛ فنبدأ بمقالين مدّ بيلّا أسرة تحرير "الفاريوروم" بهما لضمّهما إلى مقالاته الأخرى التي صدرت فيه وكان قد نشرهما قبل ذلك باللغة الإنجليزية، الأوَّل بعنوان: "الجدّ والهزل في الإسلام المبكّر"[1]، والثاني "مفهوم الحِلم في الأخلاق الإسلاميّة"[2]، وهما مقالان يكادان يتطابقان في بنيتهما ومضامينهما مع مقالي "الجدّ والهزل" و"الحِلْم" اللّذين كتبهما بيلّا في دائرة المعارف الإسلاميّة[3]. يبدو أنّ ما كتبه أبو عثمان

(1) «Seriousness and Humour in Early Islam» in *Islamic Studies*, 2-3 (Karachi, 1963) pp.353-362.

(2) «Concept of ḥilm in islamic ethics» in *Bulletin of the institute of Islamic Studies*, VI-VIII (Aligarth, 1962-3), pp.1-12.

(3) "الجدّ والهزل" (بالفرنسيّة) في د.م.إ ، ج2، ط2، ص549–550 =

في الحِلْم هو الذي أوحى إلى بيلّا بالانشغال به في ثلاثة مقالات حرّر كلّ واحد منها بلغة: العربيّة والفرنسيّة والإنجليزية؛ مشيرًا إلى أنّ الجاحظ الذي اجتهد أكثر من غيره من الكتّاب العرب القدامى في فهم العواطف والطبائع الإنسانيّة قد استطاع، وهو المعتزلي بما أوتي من قوّة العقل والحِجاج، أن يدقّق في مفهوم الحلم ويمحّصه وأن ينظر إليه من زاوية مغايرة للتي كان معاصروه ينظرون إليه منها[1]، ويضبط شروطًا ينبغي أن تتوفّر في الحليم صاغها في مقطع يصفه بيلّا بالجميل في رسالته "في كتمان السرّ وحفظ اللّسان"[2]، وتبعًا لذلك لم يجد – على حدّ زعمه– عناء يُذكر في رسالته "فضل بني هاشم على بني عبد الشمس" في تجريد الأحنف ومعاوية من هذه الخصلة[3].

من جهة أخرى لا يُرجع بيلّا كلّ ما ألّفه الجاحظ إلى انتمائه السياسي والمذهبي، وإنّما كذلك إلى عبقريته الأدبيّة

= "الحِلْم" (بالفرنسيّة) في د.م.إ، ج3، ط2، ص403–404.

(1) «Concept of ḥilm in islamic ethics» in *Bulletin of the institute of Islamic Studies*, VI- VIII p.11.

(2) "حِلْم" في د.م.إ ، ج3، ط2، ص404.

(3) «Concept of ḥilm in islamic ethics» in *Bulletin of the institute of Islamic Studies*, VI- VIII, p.9.
انظر كذلك: "حلْم" في د.م.إ، ج3، ص404 .

وانفتاحه الفكري وموهبته. فبعد أن أكّد في مقاله "الأدب العربي وقضايا الأدب المقارن"[1] تأثير الأدب العربي في الثقافة الغربيّة من خلال أمثلة دقيقة، كالموشحات والزجل وألف ليلة وليلة وغيرها، يأتي الدور على الجاحظ: "السلطة المعرفيّة التي يخضع لها ويأتمنها" كما ينعته[2] ، مشيدًا بآرائه في الترجمة من خلال ملاحظاته حول آداب الشعوب الأخرى، مثل الإغريق، قبل أن يجزم بصريح العبارة، قائلاً: "أعتبر الجاحظ عن يقين جازم أنّه السبّاق [إلى الجديد] في كلّ شيء، بل أعتبره رائدًا للدراسات الأدبيّة المقارنة ساهم ولو بصفة متواضعة في نشأتها"[3]. وإذا كان الجاحظ رائدًا للأدب المقارن كما يذهب إلى ذلك بيلّا، فما بالك إذن بالأدب العربي الصرف. في مقاله "تنوّع في موضوع الأدب"[4]، وهو في الأصل محاضرة ألقاها بيلّا في بروكسل، يشير في فاتحته إلى أنّه ثمة أكثر من طريقة لطرح موضوع الأدب العربي ولكن

(1) «Littérature arabe et problèmes de littérature comparée» in *Etudes sur l'histoire socio-culturelle de L'Islam*» (VI Ie, XVes.), London, Variorum Reprints, 1976, pp 3-15.

(2) المرجع السابق، ص8 .

(3) المرجع نفسه، ص9 .

(4) «Variations sur le thème de L'adab» in *Etudes sur l'histoire socio-culturelle de L'Islam* (VI Ie, XVes.), London, Variorum Reprints, 1976, pp 19-37.

للدخول في صلب الموضوع لا بدّ –وهذا بديهي - كما يقول: "أن أهتدي بصديقي الجاحظ، القطب الذي تدور عليه رحى الأدب كما يقول العرب"[1]. ثمّ يسترسل في تحليل أهمَّ موضوعات الأدب العربي القديم وإنْ لم يغفل عن ذكر ابن المقفع وابن شُهيد الأندلسي والهمذاني والتوحيدي، وصولاً إلى المويلحي وكتابه "حدّث عيسى ابن هشام" "الذي يعتبره آخر رائعة من روائع الأدب العربي القديم، فإنّ نصيب الأسد كالعادة كان لصديقه أبي عثمان ومؤلّفاته[2]. هذه الآراء التي تعلي من شأن الجاحظ وتبيِّن أفضليته على غيره من كُتّاب زمانه وفضله على الأدب العربي، بل فضله على بيلّا نفسه؛ ما انفكّ الرجل يردّدها من مقال إلى آخر وكأنّه يشعر في قرارة نفسه وبعد أن قضى عمره يدرسه وينقّر في آثاره ويترجم بعضها إلى لغته الفرنسيّة أنّه لم يوفِّ صديقه حقّه. ولذلك لا ينبغي أن نستغرب من تكرار بيلّا لما سبق أن قاله في أدب الجاحظ، في مقاله "الموسوعات في العالم العربي"[3] حيث يؤكّد، قائلاً: "في بداية القرن الثالث للهجرة هيمن على الأدب

(1) المقال نفسه (بالفرنسية) ص19.

(2) المقال نفسه (بالفرنسية)، ص23–37.

(3) «Les Encyclopédies dans le Monde arabe» in *l'histoire socio-culturelle de L'Islam* (VI Ie, XVes.), London, Variorum Reprints, 1976, pp 631-658.

رجل لا مثيل لفضوله المعرفي وعلمه ألا وهو الجاحظ"[1]. وحتّى يدلّل على أنّه رائد الموسوعيين العرب قارنه بالدميري (742-808) الذي جاء بعده بخمسة قرون وألّف كتابًا في الحيوان بدا عاجزًا فيه عن أن يقترح تصنيفًا مَرْضيًّا وعلميًّا مقنعًا للحيوان كما فعل أبو عثمان، هذا دون إبراز موسوعيته التي ظهرت كذلك على أحسن ما يكون حسب اعتقاده من خلال كتابه "التربيع والتدوير" الذي طرح فيه - على حدّ قوله - أسئلة معرفيّة تشمل كلّ ميادين العلوم دون أن يدّعي الإجابة عنها، وبلور فيه متجشّمًا عناءً كبيرًا فهرسًا يشكّل نواة لموسوعة فريدة من نوعها نجد فيه إحالات على أحداث وشخصيات تاريخيّة، على شعوب أسطوريّة ووقائع قديمة مشكوك في حدوثها ولكنّ المؤرّخين قبلوا بصحّتها، وعلى خرافات حول نشأة الكون وعقائد قابلة للنقد لعرب الجاهليّة ولليهود والنصارى ولأتباع الديانات المانوية والمزدكيّة وللشيعة، وكذلك أمثال حيوان رائجة في الكتب الدينيّة...[2].

لا يكفّ بيلّا في معظم مقالاته عن التنويه بالنفس التجديدي في أدب الجاحظ وفكره، ويذهب إلى أنّه على عكس ما ساد مثلاً في الثقافة العربيّة الإسلاميّة من تمجيد

(1) المقال نفسه (بالفرنسيّة)، ص635.
(2) المقال نفسه، ص636-637.

للجِدّ وتقبيح للهزل، كان أبو عثمان أوّل مَن بادر بإبراز فضائل الهزل وحدّد معناه بوضوح مستنكرًا موقف معاصريه منه، مبيّنًا أنّ الضحك من الضروريات في حياة الإنسان، كما أنّ الدعابة والتندّر؛ ما لم يتجاوزا حدّهما، فهما لا يتعارضان مع تعاليم الإسلام. ولذلك عاب على كُتّاب عصره والذين سبقوه إفراطهم في الجدّ، ما يُصيب القارئ بالملل، وعمد هو تبعًا لذلك أن يخلط بين الجدّ والهزل ببراعة، ويتعمّد، وهو يخوض في مؤلّفاته في مسائل على غايـة من الجدّيـة، أن يضمّنها نوادر هزليّة حتى يطرد السأم عن قارئه مثلما فعل في رسالة التربيع والتدوير[1]. لا شكّ في أنّ ما حبّره الجاحظ في مقدّمته لكتاب البخلاء في منافع الضحك الذي وضعه حذاء الحياة... واعتبره "أوّل خير يظهر من الصبيّ وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذي هو علّة سروره"[2]، وفي فضائل الهزل الذي يقول فيه: "ومتى أريد بالمزح النفع، صار المزح جدًّا والضحك وقارًا"[3]، هو الذي ألهم بيلّا، حتى وإنْ لم يذكر

(1) انظر "الجدّ والهزل" (بالفرنسيّة) في د.م.إ، ج2 ، ط2، ص550.
وانظر كذلك:
«Seriousness and Humour in Early Islam» in *Islamic Studies*, 2-3, pp.359-360.

(2) الجاحظ، البخلاء، الدار البيضاء، مكتبة السلام الجديدة، 1999 ص10

(3) المصدر نفسه، ص11.

ذلك صراحة، كتابة هذين المقالين، كما ألهمه كتابة مقال شديد الصلة بالضحك والهزل متعلّق بجنس النادرة الأدبي[1] الذي يعتبر أنّ مبدعه الأوّل كالعادة هو الجاحظ، قبل أن يقتفي خطواته كتّاب آخرون، مثل الهمذاني في مقاماته مستشهداً بفلسفته في التندُّر التي عبَّر عنها في مقدّمة كتاب البخلاء الذي جمع فيه نوادرهم وطرائف حججهم[2]. وما دمنا نتحدَّث عن الأجناس الأدبية، فلا بدّ من الإشارة إلى أنّ الجاحظ على ما يبدو قد أوحى كذلك إلى بيلّا بكتابة مقال "حكاية"[3]، بحيث يقول: "نجد مرّة أخرى ضالتنا في الجاحظ، فهو يوفِّر لنا نقطة انطلاق مناسبة لدراسة الحكاية [وتتبع هذا المصطلح وتطوّره التاريخي]" قبل أن يشير إلى أنّه تنبّه في كتابه "البيان والتبيين" إلى وجود الحاكية في عصره، هؤلاء الذين كانت لهم القدرة؛ ليس فقط على تقليد الأفراد من أقوام مختلفة تعجّ بهم الامبراطورية العباسية، لاسيما في العاصمة بغداد، في حركاتهم وأصواتهم، وإنّما كذلك على تقليد شخصيات نموذجيّة، مثل العميان، علاوة على تقليد أصوات الحيوانات؛ سواء كانت أليفة أو متوحّشة[4].

(1) انظر"نادرة" (بالفرنسيّة) في د.م.إ، ج 7 ، ط2، ص 858-860.
(2) المرجع نفسه، ص859.
(3) "حكاية"، (بالفرنسية) في د.م.إ ، ج3، ص379-384.
(4) المقال نفسه، ص379.

كما أوحى إليه كذلك بكتابة مقال "مقدّمة"[1] الذي انشغل فيه بدراسة التقليد الأدبي الذي تبلور في القرن الثالث للهجرة، ولا عهد للعرب به من قبل، المتمثّل في تمهيد الكُتّاب لمؤلّفاتهم بمقدّمات تكون مستقلّة عن المؤلَّفات ذاتها، عادة ما تُفتتح بالبسملة تليها الحمدلة يعرضون فيها للأسباب التي دعتهم إلى التأليف. وباعتبار "المقدّمة" جنسًا أدبيًّا يعود الفضل -كما يقول بيلّا- إلى الجاحظ ويليه ابن قتيبة في تطوير أساليبها وبنيتها، ولعلّه يستحضر هنا مقدّمته الشهيرة لكتاب البخلاء[2].

أمّا إذا استحضرنا الأجناس البشرية، وقد سبق أن عرضنا لانشغال بيلّا بآراء أبي عثمان في العرب والفرس والهند والسند والروم، وكذلك بالترك والزنج وغيرهم من الأقوام، فلا بدّ لبيلّا كذلك أن يعير اهتمامًا لما كتبه الجاحظ في "الأجناس" الاجتماعيّة من شرائح مختلفة. وهنا نسوق مثالاً على ذلك مقاله "مُكدّي"[3] الذي يستهلّه بالجاحظ. يعتقد بيلّا أنّ أبا عثمان لم يكتف بالبحث اللغوي في هذا المصطلح فحسب؛ وإنّما تجاوز ذلك إلى إدراج موضوع الكُدية في الأدب العربي بتخصيصه فصلاً كاملاً في كتاب البخلاء لخطبة

(1) "مقدّمة" (بالفرنسيّة) في د.م. إ، ج 7، ط2، ص495.
(2) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
(3) "مُكدّي" (بالفرنسيّة) في د.م.إ، ج 7، ط2، ص493-495.

خالد بن يزيد [التي صاغها بأسلوبه بالطبع، هذا إذا لم تكن من إبداعه] التي عرض فيها لتجربته الطويلة في الكدية وأصناف المكدّين الذين خبرهم[1]، وقدَّم فيها نصائح ثمينة لابنه في كسب المال فكان تبعًا لذلك رائدًا في جعل الكدية موضوعًا أدبيًّا[2]. أمّا عن مقالات، مثل "المربد"[3] و"البصرة"[4]، بل مقال "الجاحظ" ذاته[5] فلسنا في الحقيقة في حاجة إلى إبراز أثر الجاحظ على بيلّا في كتابتها، فقد سبق له قبل ذلك بفترة طويلة أن انشغل بأبي عثمان قلبًا وقالبًا وبموطنه البصرة ومربدها الشهير في رسالته للدكتوراه كما رأينا. وهكذا، فإنه من البديهي إذن أن تنتقل عدوى الجاحظ الموسوعيّة والأخذ من كلّ شيء بطرف إلى هذا المستعرب الفرنسي المغرم به إلى حدّ الوله، فيجرّه معه إلى عالم الحيوان في الثقافة العربيّة الإسلاميّة بعد أن أقحمه معه في عالم الإنسان المتشعّب والمترامي الأطراف. فلا غرابة إذن في أن نشاهد بيلّا وهو

(1) قائمة طويلة من أصناف المكدّين مثل المخطراني والبانواني والكاغاني وغير ذلك عمل الجاحظ على التعريف بهم. انظر كتاب البخلاء، الدار البيضاء ـ مكتبة السلام الجديدة، 1999 ص 35-36.
انظر كذلك: بيلاّ "مُكدّي" (بالفرنسيّة)، ج7، ط2، ص494.

(2) "مُكدّي" (بالفرنسيّة)، ج7، ط2، ص 493-494.

(3) "المِرْبد" (بالفرنسية) في د.م.إ، ج7، ط2، ص115 - 116.

(4) "البصرة" (بالفرنسية) في د. م ،إ ، ج 1، ط2، ص1117-1119.

(5) "الجاحظ" (بالفرنسية) في د. م ،إ ، ج 2، ط2، ص395-398.

يكتب في دائرة المعارف الإسلامية، بالإضافة إلى كونه المسؤول الأوّل عن التحرير فيها باللغة الفرنسية، جاحظيًّا على أبهى ما يكون، لا ينتهي بعد أن حرّر مقالاً حول "الحيوان" على وجه العموم[1] من كتابة مقال عن حيوان مخصوص من أجناس الحيوان المختلفة؛ إلّا لينتقل إلى كتابة مقال عن حيوان آخر، وقد يكون "البغل" هو أوّل الأجناس التي خصَّها بمقال[2]، فلا ننس أنّ بيلّا هو أوّل مَن حقّق كتاب البغال للجاحظ وسهر على طبعه ونشره، والذي يعتبره جاء مكمّلاً لكتاب الحيوان الذي لم ينته صاحبه من تأليفه، على حدّ زعمه، إلا وقد أثبت من خلاله أنّه رائد بالفعل لكونه - حسب اعتقاده - قد بلور فيه قبل قرون عديدة آراء حول تطوّر الأنواع وتأثير المناخ على الكائنات الحيّة وحول علم نفس الحيوان، لم يقع تطوير البحث فيها إلّا مع القرن التاسع عشر ميلاديًّا[3]. يفصّل بيلّا القول في البغل كما يفعل مع أجناس أخرى من الحيوان في مقالات أخرى مادتها الأساسيّة ينهلها بالطبع من كتاب الحيوان للجاحظ دون أن يقتصر عليه وحده فيطعّمه بمصادر أخرى من المدوّنات العربيّة القديمة، فيلاحظ أن مفردة "بغلة"

(1) "حيوان" (بالفرنسية) في د.م.إ، ج3، ط2، ص 313-319.

(2) "البغل"(بالفرنسية) في د. م ،إ ، ج 1، ط2، ص936-937.

(3) "الجاحظ" (بالفرنسية) في د. م ،إ ، ج 2، ط2، ص396.

كانت تُطلق قديمًا لدى العرب على المذكّر- بالإضافة إلى بغل بالطبع- وعلى المؤنّث على حدٍّ سواء قبل أن يسترسل في عرض أصناف مختلفة من البغال مهتمًا بهجانته وعقره ووظائفه في حياة العرب قديمًا كاستعماله في حمل البريد، ومشروعيّة أكل لحمه من عدمه، وصولاً إلى دلالته في الأحلام. وهنا يثبت بيلّا قدرتـه المذهلة وصبره، صبر العلماء الكبار على "التنقير" -والمصطلح للجاحظ- في كلّ كبيرة وصغيرة في عالم الحيوان كما في عالم الإنسان على طريقة أبي عثمان، وهي خاصية في الحقيقة يتميّز بها بيلّا في جلّ أعماله وخاصة مقالاته في دائرة المعارف الإسلاميّة وليست المتعلّقة بالحيوان فقط، مثل: "إبل"[1]، و"غراب"[2]، و"حِرْباء"[3]، و"فيل"[4]، هذه الأجناس التي من البديهي أن يهتدي إليها من خلال "حيوان الجاحظ" مصدرًا ثابتًا وأساسيًّا في كتابتها كما قلنا، ولكن بتتبُّع آثارها كذلك في القرآن الكريم[5] والآيات التي ذُكرت فيها، وفي مدوّنات اللغة والأدب العربي، وفي تفسير العرب للأحلام[6]،

(1) "إبل" (بالفرنسية) في د.م.إ، ج3، ط2، ص687-690 .
(2) "غراب" (بالفرنسية) في د.م.إ، ج2، ط2، ص1122-1123 .
(3) "حرباء" (بالفرنسية) في د.م.إ، ج3، ط2، ص479.
(4) "فيل" (بالفرنسية) في د.م.إ، ج2، ط2، ص913-914.
(5) انظر: "إبل"، ص687-" فيل"، ص913 – "غراب" ص1123.
(6) على سبيل المثال رؤية الفيل في المنام تدلّ على حدث مهمّ جلل ("فيل"ص914) أمّا رؤية الغراب فهي نذير شؤم ("غراب"، ص1123).

وفي أمثالهم[1]، وعلاقتها بمعتقداتهم الشعبيّة والدينيّة، ومن خلال متخيلهم الرمزي[2]، وفي حياتهم اليوميّة[3]، هذا علاوة على إبراز خصائص كلّ منها الجسمانيّة وتصنيف العرب لها في جنس محدّد من الحيوان[4] وذكر تسمياتها المختلفة[5]. وخلاصة الأمر فإنّ بيلّا في معظم مقالاته، حتّى

(1) يُضرب بحزم الحرباء المثل لدى العرب لكون هذا الحيوان لا يترك غصنا تشبّث به إلّا إذا استطاع أن يثبّت قبل ذلك قدمه في غصن آخر مخافة السقوط ("حرباء"، ص497) أمّا الجمل فيضرب المثل بحقده، و"حتى يشيب الغراب" قول مثلي مأثور لدى العرب القدامى ("غراب"، 1123).

(2) يقترن الجمل في المعتقدات العربيّة الجاهلية بالشياطين، ويحدث أن يظهر بعض الجنّ في مظهر الجمل ("إبل"، ص687) كما أنّ الغراب حيوان مكروه ينبغي قتله لكونه يُضرب بالنحس وبسوء الحظّ وكثيرا ما يقترن بالفراق والاغتراب "غراب البيْن" ("غراب"، ص1123).

(3) استعمل المعتصم فيلا أهداه ملك الهند في فترة سابقة إلى المأمون للتنكيل بأحد المناوئين له في سامراء ويُدعى "باباك" قبل أن يُساق إلى حبل المشنقة ("فيل"، ص914). حول استخدام العرب للإبل في الترحال ورفع الأثقال: انظر ("إبل"، ص688).

(4) يشير بيلاّ إلى أنّ العرب يصنّفون الحرباء ضمن فصيلة الأحناش ويقرنونه بالضبّ ("حرباء، ص479) كما أنهم يقرنون بين أنواع كثيرة من الغربان التي لاحظوا علاقة العداء الشديدة التي تربطها بالبقر والحمير والبوم ("غراب"، ص 1123).

(5) يلاحظ بيلاّ أن مفردة "حرباء" تُطلق لدى العرب القدامى على المذكّر أما المؤنث فهو "حرباءة" التي عادة ما يُشار إليها بـ"أمّ حُبَيْن" امّا المذكّر فهو يُكنّى بعديد الكُنيات أشهرها "أبو براقش" التي كانت تُطلق عليه في الأندلس ("حرباء"، ص479) كما يلاحظ كذلك كثرة الكنيات=

تلك التي خصّصها للتعريف ببعض الأعلام في دائرة المعارف الإسلاميّة[1] والتي كان الجاحظ هاديًا له للكثير منهم، لا يكاد الجاحظ يغيب عنها؛ إمّا موحيًا إليه بها، أو مصدرًا يتكئ عليه لمعرفتها إلّا فيما قلّ وندر من الحالات التي لا نعثر للجاحظ على أيّ أثر له فيها، مثل مقاله الأوّل عن "عبدالله بن إسحاق"[2] الذي افتتح به سلسلة طويلة من المقالات التي نشرها في هذه المجلّدات الضخمة التي تُعرّف بالعرب ولغتهم وآدابهم

= التي تُطلق على الغراب لدى العرب وكذلك وصله في الشعر بالليل "غراب الليل:" وبالبيْن:" غراب البيْن" ("غراب"، ص1123).

(1) خصّص بيلاّ العديد من المقالات تعرّف بأعلام مشهورين أو مغمورين في دائرة المعارف الإسلاميّة في طبعتها الثانية من شرائح اجتماعية مختلفة لم يقتصر فيها على العلماء والأدباء ولكن كذلك على مشاهير من القيان والمغنّين وغيرهم. لا يمكن أن نأتي على ذكر هذه المقالات كلّها ولكن نسوق البعض منها مثل: الفقيه والمحدِّث من القرن الثاني للهجرة "الحسن بن صالح بن حيّ الكوفي"، ج3، ص251 والمعتزلي أصيل البصرة من القرن الثالث للهجرة "هشام بن عمرو الفُواطي أو الفَوطي"، ج3، ص513، والشاعر والمؤرّخ والجغرافي الذي عاش في الأندلس "ابن سعيد المغربي"، ج3، ص951- 952 وكذلك القينة الشهيرة "حبابة" الحجازية من المدينة التي عاصرت المغنّية "سلّامة" وكان الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك قد عشق حبابة وتُيّم بها وحزن حزنا شديدا على موتها ولم يفتأ أنْ لحق بها : انظر "حبابة"، ج3، ص2-3.

(2) انظر: "عبد الله بن إسحاق"، في د.م.إ، ج1، ط2، ص44.

وبالمسلمين وثقافتهم وحضارتهم[1]. فحتّى مقال "خبز"[2] الذي اجتهد فيه في تتبّع الخبز في تسمياته المختلفة حسب أنواعه والكيفيات المتعدّدة في إعداده وخَبْزِه لدى العرب مشرقًا ومغربًا، في البادية أو الحضر عبر العصور منذ القرون الأولى لنشأة الإسلام، بل قبله إلى العصر الراهن، كان القادح لكتابته هو الجاحظ وإلّا ما كان له أن يخصّص له حيزًا كبيرًا في مقاله يعرض فيه لما سمّاه أبو عثمان في كتاب البخلاء "أمير الطعام"، هذا الكتاب الذي يقول فيه بيلّا - وهو الذي عانى الأمرّين سنوات طويلة من أجل فهمه قبل ترجمته إلى الفرنسيّة[3] - إنّه يوفّر مادة ثريّة وجزئيات مهمّة تتعلّق بخبز القمح وطرق أكله مشيرًا إلى أنه من العيب أن يُقَدَّم [إلى الضيف كما يفعل البخلاء] وحده: "خبز قَفار"؛ أي دون أن يكون مُرفقًا بأُدْم ليسهل مضغه وابتلاعه[4]، دون أن يهمل الاصطلاحات التي تطلق على "الأُدْم"؛ هذه الكلمة العربيّة

(1) هو أوّل مقالاته في د.م.إ حسب شهادة فان دونزل (Van Donzel) مساعده في أسرة تحرير دائرة المعارف الإسلاميّة: انظر "خطبته في تكريم بيلاّ بُعيد موته في جامعة السوربون في 31 مارس 93. وردت في شارل بيلاّ، سيرة مستعرب (بالفرنسيّة) ص11.

(2) "خبز" (بالفرنسيّة) في د.م.إ، ج5، ط2، ص42-44.

(3) انظر: شارل بيلاّ "سيرة مستعرب" (بالفرنسيّة)، ص 51-55.

(4) "خبز" (بالفرنسيّة) في د.م.إ، ج5، ط2، ص43.

القديمة في اللهجات العربيّة المعاصرة المختلفة؛ سواء المشتقة من جذر "ع.د.و"، مثل عدو بكسر العين أو ضمّها، أو من جذر "ج.و.ز"، مثل جْوازْ أو دْوازْ [في اللهجة المغربيّة][1] على عادته في البحث اللغوي الدقيق الذي تتميِّز به مقالاته على وفرتها، وهي خاصية وإنْ كان يشترك فيها مع أغلب المستعربين الفرنسيين القدامى، فهو لربّما أكثر هؤلاء حرصًا على التنقير اللغوي "الفيلولوجي" في المصطلحات والمفاهيم العربيّة وهو ما يلفت الانتباه بشدّة، علاوة على حرصه على تقصّي التطوّر الدلالي الذي يلحق بها عبر العصور، وهو حرص لا يضاهيه إلّا رغبته الجامحة ككلّ عالم يحترم اختصاصه في الوصول إلى الحقيقة التاريخية والتمييز في الأخبار بين الصحيح والمولَّد، وبين الواقعي والخرافي.

(1) المقال نفسه، الصفحة نفسها.

بيلاّ بين اللغة والدلالة والتاريخ

يستهلّ بيلاّ مقاله الذي كتبه باللغة الفرنسيّة: "تنوُّع في موضوع الأدب" مستعملاً المصطلح العربي في العنوان والمتن وليس معادله الفرنسي (Littérature)[1] بالقول إنّه "في ميدان بحثنا [اللغة والآداب والحضارة العربيّة الإسلاميّة] من المفيد بالنسبة إلينا دائمًا حتّى نعثر على المعاني العميقة للمصطلحات الفنّية التي تعترضنا أن ننطلق من فقه اللغة (الفيلولوجيا)، وأن نهتدي خلال رحلة بحثنا بعلم الدلالة الذي ينير لنا الطريق في غالب الأحيان بتمكيننا من ضبط المفاهيم التي ترتكز عليها مصادرنا في البحث، ومن الكشف في الكثير من الحالات عن مظاهر تظّل بالنسبة إلينا مجهولة لأوّل وهلة تتعلّق بنفسية (سيكولوجية) مستعملي اللّغة [العربية في هذا السياق]"[2]. هذا القول يلخّص التمشّي المنهجي الذي اعتمده هذا الباحث

(1) «Variations sur le thème de L'adab» in *Etudes sur l'histoire socio-culturelle de L'Islam* (VI Ie, XVes.), London, Variorum Reprints, 1976, pp 19-37.

(2) المقال السابق، ص19.

في كلّ مؤلّفاته، لاسيما مقالاته العلميّة، والذي يعتقد أنّ المستعرب الإيطالي الشهير كارل نالينو (Nallino) قد تمثّله على أحسن وجه كما يتجلّى من خلال دروسه حول الأدب العربي التي قدّمها في جامعة القاهرة في السنة الجامعيّة 1910-1911[1]، ونشرها لاحقًا باللغة الإيطالية في كتاب بعنوان "الأدب العربي من البدايات إلى العصر الأمويّ"، وقد قام بيلّا بترجمته من الإيطالية إلى الفرنسيّة لأهمّيته[2]. يتبنّى بيلّا تعريف نالينو لمصطلح "أدب" وما ورد في كتابه من أفكار تتعلّق بالأدب العربي رغم بعض مآخذه عليه التي لا تكاد تُذكر، وأهمّها على حدّ قوله: "عدم معرفته على ما يبدو بالجاحظ الظاهرة (Le Phénomène) ومؤلّفاته على أحسن وجه"، فيعود بمفردة "أدب" إلى صيغة الجمع "آداب" التي هي -في الأصل- ليست إلّا جمعًا لمفردة "دأْب" التي وردت في القرآن الكريم بمعنى العادة أو الكينونة، أي الحالة التي يكون عليها الفرد أو الجماعة، وفي الحديث القائل "وإنّه دأب الصالحين قبلكم"، ما يعني أنّ للكلمة، مثلها في ذلك مثل كلمة "سنّة"، معنًى محسوسًا: الطريق أو المسلك الذي ينبغي سلكه. يلاحظ بيلّا

(1) المقال نفسه، الصفحة نفسها.

(2) Carlo-Alfonso Nallino, *La littérature arabe : Des origines à L'époque de la dynastie umayyade*, traduction française par Charles Pellat, Paris, Maisonneuve, 1950.

أنّ مصطلح "أدب" لا وجود له في القرآن الكريم ولكنّه يحضر بواسطة الفعل المزيد "أدّب" بمعنى التعليم والتربية. وهكذا، حافظت مفردة "دأْب" إلى يومنا هذا على معناها القديم دون أن تتخذ دلالة اصطلاحيّة فنّية في حين اكتسبت مفردة "سنّة" دلالة دينيّة صرفة ومفردة "أدب" بالتوازي، أي في المعنى التعليمي دائمًا ولكن في المجال الدنيوي الصرف، ومن هنا يرى بيلّا أنّ مفهوم الأدب لدى العرب في معناه العام يتلخّص في ثلاثة مستويات متداخلة: الأخلاقي والاجتماعي والفكري[1].

وإذا كان السياق لا يسمح بتفصيل القول في ملاحظات بيلّا اللغويّة والدلاليّة حول مفهوم الأدب في هذا المقال، رغم ثرائها وأهمّيتها، فلا بدّ من أن نشير إلى أنّ هذا التمشّي المنهجي صار بمثابة السُّنَّة لديه يتبعه في معظم مقالاته، لاسيما المتعلّقة بالمفاهيم والمصطلحات الفنّية والأدبيّة. ففي مقال "حكاية"[2] يتتبَّع بيلّا هذا المصطلح في تطوّر دلالاته من عصر إلى عصر في التاريخ العربي، فيشير إلى أنّ فعل"حكى" يعني في الأصل "قلّد" ولكن لحقته بعد ذلك تطوّرات دلاليّة، فاكتسب معاني "حَدَّث" و"سرد" أو روى، وفي ذات الوقت،

(1) «Variations sur le thème de L'adab» in *Etudes sur l'histoire socio-culturelle de L'Islam* (VI Ie, XVes.), London, Variorum Reprints,1976, pp20-21.

(2) "حكاية" (بالفرنسيّة) في د.م.إ ن ج3، ط2، ص379-384.

وانطلاقًا من معنى "التقليد" ذاته، اكتسب مصدر هذا الفعل: "حكاية" معنى "القصّة" أو "الخرافة". وفي حين تعني لفظة "الحاكية" في العربية الفصحى القديمة المقلّد للأصوات والحركات لدى الإنسان والحيوان على السواء، فإنّ العربيّة المعاصرة قد تبنّت مفردة "حاكٍ" [حكواتي في العامية] للتدليل على راوي القصص أو الحكايات. وهنا يلاحظ بيلّا كما تبيّن له ذلك من خلال لسان العرب أنّ ابن منظور كان يجهل تمامًا معنى روى أو حَدَّث لفعل "حكى"، ومعنى "القصّة السرديّة" للفظة "حكاية"، ويسوق على العكس من ذلك دلالة سلبيّة لفعل حكى ليس بمعنى التقليد فقط على وجه العموم، وإنّما بالخصوص تقليد القردة في حركاتهم وأصواتهم[1]. وتبعًا لذلك فإن المشكلة التي تؤرّقه والتي سيحاول -كما يقول - أن يجيب عنها في هذا المقال تتمثَّل في البحث عن الكيفية التي اكتسب بها ضمن المسار التاريخي كلٌّ من فعل "حكى" والمصدر المشتقّ منه "حكاية" المعنى المتواضع عليه اليوم قبل أن يحاول ضبط تصنيف للحكايات يدرج فيه الأجناس السرديّة التي يُطلق عليها اليوم "حكاية" في اللغة العربيّة.

وهكذا، بعد أن يعبر بيلّا القرون الأولى للعصر الوسيط

(1) المقال نفسه، ص397 .

متتبعًا الحكاية لدى الجاحظ والهمذاني والأصفهاني في الأغاني وألف ليلة وليلة يحطّ بنا الرحال في العصر الحديث حيث صارت للحكاية دلالة ثابتة نعرفهـــا بها في تقابل مطلق - كما يقول - مع معناها القديم الأوّل. ولم يبخل بيلّا في هذا المقال أن يعرض كلّ الأجناس السرديّة التي تحفّ بمعنى "الحكي" وبيان تداخلها مع الإقرار كذلك بتميُّز الواحد منها عـن الآخـــر، ما يتطلَّب، على حدّ اعتقاده، أن يُفْحَصَ كلُّ واحد منها على حـــدة، وهي التالية: قصّة، أسطورة، نبأ، خبر، سيرة، حديـــث، مَثَل، رواية، نادرة[1]، سمر، خرافة. أمّا في مقال "مكدّي" وهو على صلة وثيقة بالأدب العربي في مستواه الاجتماعي الذي ضبطه له بيلّا، إضافة إلى المستويين التعليمي والفكري، ينطلق الباحث من بخلاء الجاحظ ليعرّف "المكدّي" باعتباره شخصًا يمارس الكِداء (صاحب الكِداء)، وهو مصطلح كمـــا يلاحظ سيقع تعويضه في فترة لاحقة بـ"كُدْية" أو "تَكْدية" للدلالة على المتسوّل الذي عادة ما يكون متشرّدًا محتالاً يحذق استعمال الحيلة لابتزاز المغفّلين أموالهم،

(1) خصّ بيلاّ "النادرة" بمقال مستقلّ بذاته انطلق فيه كالعادة من المستوى اللغوي، فلاحظ أنّ النادرة مشتقّة من "الندرة" بمعنى القلّة مقابل الكثرة وربط بينها وبين النكتة والمُلحة والفكاهة وتُروى بين الأصدقاء في مجالسهم الحميمة كما تُروى علنا في المجالس الرسمية: انظر "نادرة" (بالفرنسيّة) في د.م.إ، ج7، ط2، 858.

إضافة إلى إبهارهم بفصاحة لسانه وخُطبه المؤثّرة رغم كونها خادعة. يلاحظ بيلّا في هذا السياق أنّ المعاجم العربيّة القديمة لا تورد هذه المصطلحات التي استقاها من بخلاء الجاحظ بمعانيها التي ذكرها. وإذا كان الجاحظ قد شعر بالحاجة إلى تعريف لفظة مُكدّي – ولكن في اقتضاب شديد- جنبًا إلى جنب مع سلسلة من الألفاظ "الفنّية" الأخرى[1] فإنّما لكونه يعلم أنّه مصطلح عامي مستقى من معجم ألفاظ المتسكّعين المحتالين وغير واضح إلّا في أذهان المتعلّمين، وقد يكون مشتقًّا من اللفظ الفارسي: "جادى" (بالجيم المصريّة) (gadā) الذي يعني "فقيرًا- متسوّلاً".

لقد أخذنا مصطلحي "أدب" و"حكاية" اللّذَيْن حظي كلٌّ واحد منهما من بيلّا بمقال منفرد باعتبارهما نموذجين عن المصطلحات الأدبيّة التي انشغل بها عرضًا وتحليلاً، إضافة إلى "مكدّي" وهو مصطلح اجتماعي (سوسيولوجي) ولكن له علاقة وثيقة بالأدب، ويكفي أن نُذَكِّر بكونه الموضوع الأساس لمقامات الهمذاني والحريري، ومن بعدهما المويلحي، لنبيّن إلى أيّ مدى سكن الهاجس اللغوي الدلالي الذي لا ينفصل عن الوعي بالتطوّر التاريخي شارل بيلّا ووجّهه في أبحاثه في

(1) كنّا قد أشرنا إلى هذه الاصطلاحات "الفنّية" في الهامش أعلاه (في فصل مقالات بيلاّ حول الجاحظ ومن وحيه) مثل الكاغاني والمخطراني .

حقل الدراسات العربيّة والإسلاميّة. غير أنّ هذا الهاجس كما نلاحظ ما انفكّ يلاحق بيلّا في انشغاله بالمصطلحات "الفنيّة" التي لا تحيل فقط على جنس المجرّدات مثل التي رأيناها، وإنّما على عالم المحسوسات المادية، مثل مصطلحات "خيمة" و"خبز"، بل حتّى "كُسْكسو" الذي يحيل على الطعام الشهير لسكّان شمال أفريقيا من العرب والبربر الأمازيغ.[1] يلاحظ بيلّا في مقال "خيمة"[2] أنّ الشعراء والكتُّاب العرب القُدامى عندما يتحدّثون عن خيمة البدو الرُّحَّل كانوا يطلقون عليها المصطلح السّاميّ الشائع بكثرة "بيْت" الذي كان يُشار به في ذات الوقت إلى كلّ مسكن، سواء كان ثابتًا في المكان أو يمكن التنقّل به، ممّا يثير التباسًا في الأذهان ولذلك، فإنّ استعمـــال "بيْت الشَّعر" للدلالـــة على الخيمة يكون أكثر دقّة -كما يقول بيلّا - حتّى وإن كان هذا التعبير قد يثير بدوره في السماع التباسًا من نوع آخر لدى المتلقّي إذا لم يقع تمييزه عن

(1) يستعمل بيلاّ المصطلح المغربي "كُسكسو" وليس "كسكسي" كما في اللهجتين التونسيّة والليبيّة مشيرا إلى أنّه من المحتمل أن تكون الكلمة بربريّة وليست عربيّة رغم أن في جهات مختلفة في الجزائر يطلق على هذه الأكلة تسمية عربيّة "طعام" [إطلاقا للكلّ على الجزء].. يفصّل بيلاّ القول في هذا الطعام وطرق إعداده ومشتقاته وأنواعه. انظر "كسكسو" (بالفرنسية)، في د.م. إ، ج5، ط2، ص531-532.

(2) "خيْمة" (بالفرنسيّة) في د.م. إ، ج4، ص1178-1179.

"بيت الشِّعر" ولكنه في لغة المشافهة أقلّ إثارة للّبس بكثير. غير أنّه إلى يومنا هذا، كما يلاحظ بيلّا، فإنّ كلمة بيت دون إضافة "شَعَر" صارت مصطلحًا بدويًّا صرفًا تستعمله قبائل البدو الرُّحَّل وشبه الرُّحَّل للدلالة على خيامهم في المغرب والمشرق على السواء، في حين يستعمل الحضر "خيمة" للدلالة على مأوى البدو، أي على ما يقتصر هؤلاء على تسميته بـ"بيت"[1]. لا يكتفي بيلّا بهذه الملاحظات اللغوية والدلاليّة للفظة "خيمة" وإنّما يرتد بعيدًا إلى بدايات الإسلام وقبله لتتبُّع معناها لدى العرب القدامى من خلال معاجم اللغويين العرب، فيشير إلى أنّ هؤلاء قد التقطوا لفظ "خيمة" كما كان مُستعملاً في الجزيرة العربيّة قبل الإسلام، ويذكر من هؤلاء الأصمعي في كتابه "الأخبية والبيوت" الذي عرض له ابن النديم في الفهرست، واستغلّه على نطاق واسع بعد ذلك وعلى امتداد العصور الوسطى شُرّاح الشعر التقليدي واللغويون في مدوّناتهم، ما يجعله -كما يقول- بالاعتماد على هذه المادة يحاول إعادة تشكيل هذا المصطلح القديم دون أن يتوهّم بأنّه يمكنه الإجابة عن كلّ الأسئلة التي يثيرها في الأذهان. وبما أنّ عادات الأسلاف القدامى [وأنماط عيشهم] عادة ما تستمرّ لدى خَلَفِهم في الحاضر، فإنّ الوضع الراهن للخيمة يمكنه من رسم تَمَثُّلٍ لها

(1) المقال نفسه، ص1178.

كما كانت عليه قبل الإسلام. وعلى هذا النحو، واعتماداً على كتب نقد الشعر العربي القديم ومدوّنات اللغويين القدامى اجتهد بيلّا في ضبط قائمة لأنواع الخيام بتسميات مختلفة، عمل على تعريف كلِّ نوعٍ منها تعريفًا دقيقًا يشفعه بملاحظات نقديّة. في صدارة هذه القائمة ومن خلال لسان العرب نجد "المظلّة" بكسر الميم أو فتحها، ثمّ من خلال أبي زيد الأنصاري: "الوَسُوط"، فـ"بيْت" أو بيت الشَّعر المصنوع من شعر الماعز والخِباء الذي يشبه البيت من حيث شكله ولكن يختلف عنه من حيث مادة صنعه التي تكون إمّا من الوبر أو من الصوف، وهو على ما يبدو -كما يقول بيلّا - عبارة عن خيمة الرُّحَّل من رعاة الإبل: أهل الوبر مقابل أهل المدر. بعد ذلك يعرض بيلّا للسُّرادق والفُسطاط والمِضْرَب والقُبّة، وكلّها أنواع من الخيام ملاحظًا في نهاية العرض أنّه يبدو أنّ مصطلح خيمة الذي لا نعثر له على أثر في تعداد أنواع الخيام التي نستقيها من مدوّنات اللغويين القدامى هو مرادف تقريبًا لـ"ظُلّة" أو عَريش أو عرْش التي تشير إلى مجرّد مأوى يُستظلُّ به. يقلّب بيلّا الخيمة العربيّة على كلّ وجوهها ولا يترك شيئًا من مكوّناتها الأساسيّة إلّا وصفه معتمدًا المقارنة بين ما يقوله اللغويون فيها وما يُقال في مدوّنات الشعر، مثل "نقائض جرير والفرزدق" فيذكر مقاساتها وأعوادها وثمامها، وفليجتها أو شقّتها وكِسْرها،

و"طريقتها" التي تُشدّ في كلّ طرف من أطرافها بـ"الحتار" حيث تُشدّ بدورها الحبال التي تُسمَّى طُنوبًا (جمع أطناب)، وترتبط بأعواد يُطلق عليها "الأوتاد"، إلى غير ذلك من مكوّناتها وخصائصها التي يسترسل بيلّا إلى خاتمة مقاله في عرضها وتفكيكها[1]، وهاجسه في كلّ ذلك أن يرسم للقارئ الخيمة العربيّة بالكلمات في أبهى صورة لربّما يعجز عن رسمها أمهر المصوّرين الفوتغرافيين ورسّامو اللوحات.

ما فعله بيلّا بالخيمة فعله بالخبز الذي قلّبه بدوره على كلّ وجوهه. يستهلّ مقاله بتعريفه للخبز بقوله: إنّه يُطلق عليه هذا الاسم مهما كانت نوعية دقيق الحبّ الذي يُعدّ منه، سواء القمح أو الشعير أو الأرزّ، ومهما كان شكله أو طريقة إعداده ودرجة رقّته؛ ملاحظًا أنّه يوجد في اللغة العربيّة الفصحى وكذلك في اللهجات العربيّة المختلفة عدد هائل من الاستعارات ومصطلحات مخصوصة تشير إلى الخبز لا يمكن أن يعرض لها كلّها في مثل هذا المقال، ما يعني أنّ الحقل الدلالي للمعنى الأصلي للكلمة قد توسّع كثيرًا، ويكتفي بأن يسوق مثالين: "خبز خمير" و"خبز فطير". بعد أن ينشغل بالتسميات المرتبطة بالخبز، مثل "مخبزة" وتسمياتها المحلّية المختلفة، مثل فرن [إطلاقا للجزء على الكلّ]، أو "كوشة"، وكذلك

(1) المقال نفسه، ص1178- 1179.

صانع الخبز "خبّاز" الذي يُشار إليه في المغرب كما يُلاحظ في صيغة المؤنّث فقط "خبّازة" حتّى ولو كان ذكرًا بالطبع، كما يُشار إليه بـــ "الفرّان" دلالة على الفُرْن الذي يُطهى فيه الخبز. يشير بيلّا إلى أنّ اقتصاد الجزيرة العربيّة القديم المتميّز بالاكتفاء بالضروري والحاجي - على قول ابن خلدون - لم يكن يسمح بأن يكون الخبز غذاء أساسيًّا. وهنا يحيل، كما يفعل في العديد من مقالاته التماسًا لفائدة القارئ، على مقال "غذاء" في دائرة المعارف الإسلاميّة (بالفرنسيّة: ج2، ص108) لمن يرغب في مزيد من المعرفة حول هذه المسألة، ولذلك، فإنّ تعبير "آكل الخبز"، كما يقول بيلّا مستندًا إلى استعماله في كتاب البخلاء، هو دلالة على الثراء والترف[1]. ثمّ يستعرض بيلّا أنواعًا من الخبز مشيرًا إلى الفروق الكمّيّة والكيفيّة بينها حسب طرق إعداده في المدن والبوادي العربيّة. فالبدو الرُّحَّل يأكلون خبز الثُلمة نسبة إلى الثلمة وهي حجر مسطّح يسخنونه [أو يكون ساخنـاً بطبعه من حرارة الشمس] ويطهون عليه نوعًا من الخبز الرقاق، كما يأكلون "خبز الملّة"، ويُسمَّى كذلك بالمَليل، وهو خبز أقلّ رقّة من الثُلمة يُطهى على رماد ساخن[2]، أمّا

(1) "خبز" (بالفرنسيّة)، في د.م.إ ،ج5 ط2، ص42-43.

(2) يشير بيلاّ فقط إلى الرماد الساخن ولكن خبز المَلّة يمكن أن يُطهى على رمل الصحراء النقيّ الساخن في أوقات الظهيرة خاصة.

الحضر فهم يأكلون خبزًا من دقيق أكثر بياضًا يُسمّى"الحُوّارى" أكثر صنعة يطهونه في التنُّور. ولا يُفوّت بيلّا هنا الفرصة ليعدّد أصناف الخبز لدى العرب وتسمياته: الخُشّار، وخبز السميد، وخبزة الذرّة، والكِسرة والقُرص، وهما نوعان من الخبز عادة ما يُشتقّان من دقيق الشعير الذي يُخلط بدقيق القمح، ثمّ يُعرّج على الرُقاق والمرقوق والمطلوء والرغيف، وهو خبز مُحَوّر بمعنى دائري تسميته بالفارسيّة التي تبنّاها العرب القدامى، هي الجردق أو الجردقة[1]. لا يهمل بيلّا أيّ جزئية تتعلّق بالخبز حتّى كنية "الخبزأرزي"[2] المركّبة من الخبز والأرز التي أُطلقت على شاعر شعبي في البصرة لم يشتهر فقط بشعره ولكن بمهنته خبّازًا، وكان يُعدُّ خبزًا جيّدًا من الأرز يبيعه بثمن في متناول عامة الناس[3]. بيْد أنّه لربّما من كلّ المصطلحات العربيّة لم يثر مصطلح انتباه بيلّا وانشغاله، بل إعجابه، مثلما أثاره في نفسه مصطلح "الحِلْم" والحكمة العربيّة القديمة المنبثقة منه "احْلُم تسُدْ" التي أعاد صياغتها كالآتي: "كُن حليما

(1) "خبز" (بالفرنسيّة)، في د.م.إ ،ج5 ط2، ص4.
(2) المقال نفسه، ص43.
(3) الخبزأرزي كنية مركّبة من خبز وأرزّ أطلقت على شاعر شعبي من البصرة متوفى حوالي 327هـ واسمه: أبو القاسم بن المأمون وكان يمتلك مخبزة في المِربد بالبصرة تقدّم لحرفائها خبزا من الأرزّ. لم يثر الخبز أرزي الإعجاب فقط بخبزه وإنّما كذلك بشعره الغزليّ خاصة. انظر مقال "الخبز أرزي" في د.م. إ، ج5، ط2، ص44.

تسُدْ" مخافة أن يلتبس مفهوم "الحِلْم" بـــ"الحُلْم" في الأذهان؛ بما في ذلك لدى عرب اليوم -كما يقول- والتي فطن مكرّموه في آخر مسيرته الأكاديميّة إلى أنّه ليس ثمّة من الحكم أفضل منها تأثيرًا عليه ولا جملة في كلّ اللغات من شأنها أن تُسعده مثلها، فنقشوها على السيف الذي أهدوه إليه بمناسبة تكريمه بعد أن قام هو برسمهـا على ورقة بخطّ يده بطريقته الجميلة في رســـم الحـــروف العربيّة التي تضاهي جمالاً كتابة مشاهير الخطّاطين العرب[1]. خصّص بيلّا لمصطلح "حِلم" مقالاً باللغة العربيّة ومقالين بالفرنسية والإنجليزيّة مثله في ذلك مثل "الجدّ والهزل". أدرك بيلّا الصعوبة الفائقة في ترجمة هذا المصطلح العربي إلى مصطلح واحد في كلتا اللغتين؛ أي دون اللجوء إلى مصطلحات متعدّدة فيهما لعلَّها تفي معًا بالغرض وتُقرّب إلى الأذهان ماذا يعنيه العرب بهذه الصفة.[2] أشار إلى أنّ

(1) يروي شارل بيلاّ في سيرته الذاتيّة قصّة تكريمه من ثلّة من الأساتذة والباحثين الفرنسيين والعرب ببادرة من جمال الدين بن الشيخ وذلك يوم 31 يناير 1986 بالقاعة الكبرى لجامعة السوربون في باريس مؤكّدا على أنّ طلبه نقش هذه الحكمة العربيّة "كن حليما تسُد" على السيف الذي أعلمه المكرّمون بنيتهم إهداءه له ورغبتهم في أن تُنقش عليه جملة من اختياره إنّما هو رغبة منه في تكريم العرب القدامى "الحقيقيين" كما يصفهم حتّى وإنْ جاء هذا التكريم متأخّرًا. انظر سيرة مستعرب، ص160-161.

(2) «Concept of ḥilm in islamic ethics» in *Bulletin of the institute of Islamic Studies*, VI- VIII p; 1-12 .

"حِلْم" في د.م.إ ، ج3، ط2، ص403.

"الحِلم"، وهو قيمة أساسيّة في الأخلاق العربيّة الإسلاميّة، عادة ما يُستعمل مقترنًا بـــ "عِلْم" ولكن لغاية أسلوبيّة أبعد ما تكون عن الدلاليّة. أمَّا نقيضه فهو "جهْل" أو "سفه- سفاهة"، ومنها اشتقّ تعبير "سفاه الأحلام" ملفتًا الانتباه إلى أنّ المعاجم العربيّة لا تقدّم للحِلم إلّا تعريفات مشتّتة يحاول هو جمعها وتنظيمها قبل تناولها بالنقد والتمحيص. يتتبع بيلّا مفهوم الحلم عند العرب اعتمادًا -بالإضافة إلى القرآن الكريم- على مصادر عربيّة قديمة مختلفة شعريّة ونثريّة، أدبيّة، أو فقهيّة أو فلسفيّـة، وغيرها، فيشير إلى ما تعنيه في ذات الوقت لدى العرب القُدامى من العفو عند المقدرة وضبط النفس والثقة بها، وكبح جماح الغضب، والصبر على الأذى، والقوّة دون عنف، واللّين في غير ضعف؛ إلى غير ذلك من الدلالات إلى أن استقرّت حديثًا، لاسيما في الوعي الشعبي، في معنى المغفرة أو التسامح[1]. والطريف في الأمر أنّ بيلّا من فرط هيامه بهذا المصطلح وشغفه به وإحساسه بقيمته خصّص له حيزًا مهمًّا في مقاليه باللغتين الفرنسيّة والإنجليزيّة عن الهزل والجدّ، أي في موضوع يبدو لأوّل وهلة أنّه لا علاقة له به[2].

(1) "حِلْم" في د.م.إ ، ج3، ط2، ص403-404.

(2) انظَر "الجدّ والهزل" (بالفرنسيّة) في د.م.إ، ج2، ط2، ص 549
وانظر كذلك: «Seriousness and Humour in Early Islam» in *Islamic Studies*, 2-3, pp.353-354

وما كان لبيلّا أن يكون دقيقًا صارمًا في ملاحظاته اللغويّة والدلاليّة لو لم يكن شغوفًا باللغة العربيّة مثل شغفه بلغته الفرنسيّة، بل باللّغات بصفــة عامــة التي كان يحذق البعض منها، مثل الإنجليزية والإسبانيّة والإيطاليّة، علاوة على معرفته باللاتينيّة والإغريقيّـة والبربريّـة التي كان مهتمًّا بها وفكَّر في الانشغال بها في رسالة دكتوراه لو لم يستمله الجاحظ ويجذبه نحوه. فلا غرابة إذن أن نجده أحيانًا، لاسيما في دراسته لاستعمال المصطلحات العربيّة في شمالي أفريقيا يورد ما يعادلها في اللغة البربريّة[1]. على سبيل المثال في مقاله "بربر"[2]، وقبل أن يسترسل في الحديث عن أصولهم وتاريخهم قبل الإسلام وبعده وعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم وآدابهم وفنونهم، التي ما كان بإمكانه الحديث عنها لو لم يكن على معرفة بلغتهم في لهجاتها المتعدّدة، يشير إلى أنّه ثمّة احتمال أن تكــون هـذه التسمية قد أطلقت على "البربر" تهجينًا لهم لكونها مستعملـة في الإغريقية *(Barbaroi)* وفي اللاتينيّة *(Barbari)*، وهي التسمية التي استعارها العرب من هاتين اللغتين ليطلقوا عليهم: بربر، برابر، أو برابرة. ويقترح بديلاً عن هذه التسمية، ما يشير به

(1) "انظر مثلا الخبز ويُطلق عليه في البربريّة بـ "أغْرُرُومْ" في مقال "خبز" (بالفرنسيّة)، في.م.إ، ج5 ط2، ص43 وكذلك الحمار الذي يُطلق عليه في البربرية (أسْنُوسْ): سيرة مستعرب، ص16.

(2) "بربر" (بالفرنسيّة)، في د.م.إ، ج1، ط2، ص1208-1209.

هؤلاء إلى أنفسهم وبلغتهم التي يسمّونها حسب اختلاف لهجاتهم "تمزيغت" (Tamazight)، أو "تمزيخت" (tamazikht)، أو "تمهق" (tamahaQQ). يذهب بيلّا بعيدًا في مقارباته اللغوية والدلالية للألفاظ العربيّة كما يتضح ذلك - مثلاً - من خلال مقالاته التي خصّصها لأغراض الشعر العربي، مثل "حماسة"[1]، أو "هجاء"[2]. ويعتقد أنّه بالعودة إلى المعنى الاصطلاحي لجذر "ه.ج.و" يتبيّن أنّه ثمّة احتمال أنّ العربيّة قد استعارته من العِبريّة مُوْرِدًا الجذر العبري[3] بحروفه الأصليّة الذي يدل في معناه الأساسيّ على الهمس، كما يدلّ في اللّغة السريانية على معنى التأمّل، وكذلك معنى التلفُّظ بتعويذات في صوت خافت. وهنا يلاحظ بيلّا أنّ متّى بن يونس في ترجمته لكتاب "الإنشائي" لأرسطو قد ترجم الكلمة اليونانيّة التي يذكرها بحروفها الأصليّة بكلمة هجاء وضدّها في نفس اللغة بالمديح؛ في حين تُترجمان في العربيّة الحديثة إلى "ملهاة" و"مأساة"[4]. وفي الحقيقة فقد ساعد تكوين بيلّا منذ سنوات دراسته الثانويّة

(1) "حماسة" في د.م.إ، ج3، ط2، ص113-114.
(2) "هجاء" (بالفرنسيّة) في د،م،إ م ج3، ط2، ص363-366.
(3) نفس الشيء فعله مع مصطلح "حيوان" الذي جزم بأنّه مشتقّ من جذر ساميّ أورد معادله باللّغة العبريّة يتضمّن معنى "الحياة": انظر "حيوان" (بالفرنسيّة) في د.م.إ، ج3، ط2، ص313.
(4) المقال نفسه، ص363.

في ميدان دقيق، هو الرياضيات أمّ العلوم – ولا ينبغي أن ننسى أنّ اختصاصه الأوّل الذي حصل به على شهادة ختم الدروس الثانويّة بامتياز وفي مرتبة الشرف هو الرياضيات الأساسيّة- على صقل منهجه في البحث، وجعله يلتزم أقصى درجات الدقّة والصرامة استنتاجًا واستدلالاً وحُكمًا، وهو ما نلاحظه؛ بالإضافة بالطبع إلى بحثه الذي طُبع في كُتيّب حول "حساب العقد عند العرب"[1]، في مقالاته المتعلّقة بالحضارة العربيّـة الإسلاميّـة التي اضطرّ فيها للقيـام بحسابات دقيقة ومعادلات صعبة اتّكأ فيها على معرفته القديمة بالرياضيات للكشف عن معدّل الولادات في عهد النبي محمّد عليه السلام في مقاله الذي ورد بعنوان استفهامي: "هل يمكننا أن نعرف معدّل الولادات في زمن الرسول؟"[2]، أو في مقاله الآخر: "بعض الأرقام حول معدّل الأعمار لدى شريحة من المسلمين"[3].

(1) *Textes Arabes relatifs à la Dactylonomie*, Maisonneuve El Larose, Publications Du Département D'Islamologie De L'Université De Paris- Sorbonne Paris 1997.

(2) «Peut-on connaitre le taux de natalité au temps du Prophéte?: A la recherche d'une méthode» in *Journal of The Economic and Social history of the Orient*, 14-2 (Leyde 1971), pp. 107-135.

(3) «Quelques chiffres sur la vie moyenne d'une catégorie de Musulmans» in *Mélanges d'Islamologie* (Mémorial A.Abel) (Leyde 1974), pp.233-246.

إنّ تتبُّع أبحاث بيلّا اللغويّة؛ سواء ما تعلَّق منها باللغة العربيّة وحدها، أو اجتهاده في العثور على ما يعادل المصطلحات المستعملة فيها في اللغة الفرنسيّة أوّلاً، ثمّ في اللغتين الإنجليزية والإسبانية[1]، وكذلك البحث عمّا يصلها باللّغات القديمة وتعابيرها الأدبيّة[2] يتطلّب بحثًا مستقلاً بذاته لا يتّسع له هذا المقام. ولكن، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ حرص بيلّا على التنقير في اللغة العربيّة وألفاظها ومصطلحاتها ورصدها في تطوّرها الدلالي عبر التاريخ لفهم ثقافة الناطقين بها لا ينفصل عن حرصه -كما كلّ العلماء- على مطاردة الحقيقة التاريخيّة بكلّ ما أوتي من قدرة نقديّة متسلّحًا في ذلك بمنهج أستاذه الجاحظ قبل ديكارت في الشكّ باعتباره طريقًا إلى اليقين. هذا ما نلاحظه في أغلب مؤلفاته حيث نراه لا يتردّد في إعمال العقل للكشف عن أنّ ما يعتبره البعض حقائق هو مجرّد خرافات وأساطير. يتصدّى بيلّا في مقاله[3] "السرّاسينيون في

(1) انظر مقال: La EsPANA MUSULMANA EN Las OBRAS DE AL- Mas'UDI in *Actas del primer congresso de estudios arabes e islamicos (Madrid 1964*), pp/257-264.

(2) انظر كذلك حول هذه المسألة: «Littérature arabe et problèmes de littérature comparée» *in Etudes sur l'histoire socio-culturelle de L'Islam* (VI Ie, XVes.), London, Variorum Reprints, 1976, p8.

(3) «Les Sarrasins en Avignon » in *En Terre d4'Islam,*1944-4 (Lyon 1944), pp.178-191.

أفينيون (Avignon)"[1] لبعض الأحكام والمغالطات التي أطلقها بعض المؤرّخين والكُتّاب الفرنسيين حول "السرّاسينيين"، أي المسلمين[2] عند غزوهم مدينة أفينيون في 736م. بالتأكيد يقول إن الجملة التالية التي قرأناها في الكتب المدرسيّة: "في سنة 732 ميلاديًّا هزم شارل مارتل (Charles Martel) العرب في مدينة بواتييه (Potiers)"[3] ستظلّ عالقة بذاكرتنا وما انفكّت تُذكّرنا بحدث مهمّ في تاريخنا الوطني، ولكنّ هذا الانتصار قد وقع تجميله وزركشته بالخرافة".[4] قبل أن يضيف: "تنسب المصادر التي تتحدّث عن هذه الفترة من تاريخ الجنوب الفرنسي للسرّاسنيين؛ إمّا تأثيرًا كبيرًا على مجريات الحياة في هذه المنطقة لا يمكنهم هم أنفسهم أن يدّعوه، أو ارتكاب فظائع لا تُحصى ولا تُعدّ لا يمكن أن ننسبها إليهم دون تحفّظ. لا شكّ في أنّهم أحدثوا الكثير من الأضرار، ولكنهم كانوا يستهدفون

(1) مدينة تقع في جنوب شرقي فرنسا على بعد نحو 120 كلم من مرسيليا و700 كلم من باريس.

(2) السراسنيون (Les Sarrasins- Sarrazins) هي التسمية التي كان يُطلقها الفرنسيون على المسلمين في العصور الوسطى. أوّل مرّة بدأ إطلاق تسمية المسلمين على أتباع الديانة المحمّدية كان في القرن 16 ميلاديا. قبل ذلك كان هذا الاصطلاح مجهولا لديهم تماما.

(3) مدينة تقع في الوسط الغربي لفرنسا غير بعيد عن اسبانيا وتبعد حوالي 700 كلم عن "أفينيون".

(4) "السراسنيون في أفينيون" (بالفرنسيّة)، ص 178.

بالأخصّ الكنائس والأديرة [وليس البشر] أملاً في العثور على غنائم وافرة، في حين أنّ مرور الفرنجة (Les Francs)[1] من هذه الربوع كثيرًا ما كان مصحوبًا بعمليّات سلب ونهب وارتكاب مجازر مروّعة كان الأهالي وحدهم ضحيّتها. أمّا المسلمون فطريقتهم في الغزو معروفة، فهم يستولون على جزء من الكنائس ويحوّلونها إلى مساجد بعد أن يضعوا أيديهم على خيراتها ويصادروا لأنفسهم الأراضي التي تركها أصحابها [وفرّوا] وممتلكاتهم الأخرى، كما يستولون على الخيل والسلاح ويفرضون على السكّان دفع الجزية، ما يعني -حسب اعتقاده- أنّهم كانوا أرحم بكثير من الفرنجة؛ ولذلك يستخلص بيلّا أنّ التاريخ سيكون دون شكّ مختلفًا لو كتبه الشعب بنفسه ولم تكتبه نخبة من رجال الدين ترسم - بواسطة أخبار لا يمكن التسليم بصحّتها دون تحفّظ - شارل مارتل بطلاً وحاميًا للإيمان المسيحي؛ في حين تُصوّر المسلمين، أي السراسينيين أعداء رجال الدين النصارى باعتبارهم متوحّشين لا يتورّعون

(1) الفرنك (Francs) أو الفرنجة هم قوم من أصل جرماني غزوا فرنسا قادمين من شمالي أوروبا واشتق اسم فرنسا (France) من اسمهم ومن أشهر قوادهم شارل مارتل الذي قاد حملات التصدّي للمسلمين في القرن الثامن ميلاديّا وأجبرهم على التراجع إلى اسبانيا وعدم التفكير في مواصلة السيطرة على فرنسا، ولربّما الاتجاه شمالا نحو بلدان أوروبية أخرى.

من ارتكاب فظائع لا تُحصى ولا تُعدّ؛ في حين أنّ الحقيقة تثبت أنّ سكّان جنوبي فرنسا كانوا، على ما يبدو، يفضّلون المسلمين على الفرنجة لأنّهم كانوا، في أسوأ الحالات، يضمنون لهم ما يشبه الاستقلال الذاتي ويمكنّونهم لفترة من الزمن من تجنُّب الأضرار الناجمة عن هجومات الفرنجة عليهم، وهذا ما يفسّر أنّه عندما وصل المسلمون إلى مشارف أفينيون سنة 736م، لم يكتف سكّانها بأن فتحوا لهم أبوابها للدخول، وإنّما مهّدوا إلى ذلك بمقاومة حامية من الفرنجة كانت تستعدّ للتصدّي لهم وطردوها من المدينة[1]، ما جعل الفرنجة بعد سنة عند استعادتهم هذه المدينة من المسلمين ينتقمون من أهلها شرّ انتقام ويمارسون عليهم - على حدّ تعبير بيلّا - "قمعًا متوحّشًا" مذكّرًا بما يرويه الإخباريون عن هذه الواقعة التي أضرم فيها شارل مارتل النار في المدينة واستباحها نهبًا وسلبًا، ولم يكتف بإعمال السيوف في رقاب الجند المسلمين فقط، وإنّما كذلك في رقاب الكثير من سكّانها [المسيحيين][2].

وعندما يتعلَّق الأمر بتاريخ الأدب العربي نلاحظ الحذر الشديد الذي يلازم بيلّا في التعامل مع الوقائع والمدوّنات القديمة وما تتناقله من أخبار لا يسلّم بصحّتها من أوّل نظرة

(1) "السراسينيون في أفينيون" (بالفرنسية) ص181.
(2) المقال نفسه، ص186-187.

وإنّما بعد تدقيق وتمحيص، وإذا ما شكّ في أمرها وبدا له أنّه من الصعب بواسطة العقل قبولها أو تفنيد صحّتها تحدّث دائمًا بما يفيد التحقيق "قد" والاحتمال، ما يضفي على تحاليله طابع النسبيّة التي هي من خصائص التفكير العلمي. يتساءل بيلّا مثلاً عن مدى حقيقة الوجود التاريخي لخالد بن يزيد المكدّي من عدمه، ويلاحظ أنّ ياقوتًا في معجم الأدباء قد اعتمد على مقدّمة الفصل الذي خصّه به الجاحظ في كتاب البخلاء وعلى خاتمة خطبته التي أوردها أبو عثمان في نفس الفصل من الكتاب ليؤلّف منها تعريفًا بالرجل، في حين أنّه قد يكون شخصية من نسج خيال الجاحظ، لاسيما إنّ كتاب البخلاء هو مدوّنة أدبيّة وليست تاريخيّة يمكن الاستناد إليها في كتب التراجم.[1] نفس الملاحظة كذلك يسوقها في نفس السياق ولكنّ موضوعها هذه المرّة كتاب منسوب إلى الجاحظ، هو "كتاب الأخبار وكيف تصحّ" الذي أتلف معظمه ولم تصلنا منه إلّا بعض مقاطع أدرجها المهدي لدين اللّه أحمد بن يحيى في كتابه "المنية والأمل". يعلمنا بيلّا أنّه يفضّل ما ضمّنه من هذا الكتاب نشوان بن سعيد (ت 573هـ) في كتابه "الحور العين" وهو أطول من المقاطع الموجودة في "المنية والأمل"؛ يعرض فيه الجاحظ آراء أستاذه النَّظّام في الأخطاء التي

(1) "مُكدّي" في د.م، إ، ج7، ط2، ص494.

يرتكبها رواة الحديث التي انشغل بها بيلّا في مقاله تحليلاً وتأويلاً[1]. ومع إقراره بأنّ مسألة صحّة نسبة هذا الكتاب إلى الجاحظ من عدمها تُطرح في مثل هذا المقام يعتقد بيلّا أنّها تظلّ مسألة ثانوية – وليس هذا حالها بالطبع في سياقات أخرى- لأنّه حتّى وإن تصرّف نشوان فيها بالإضافة أو الحذف أو أدرج فيها بالتوليد ما لا يوجد في أصل الكتاب كما ألّفه الجاحظ؛ بل أكثر من ذلك حتّى وإنْ كانت هذه المقاطع ليست من تأليف الجاحظ أصلاً، فإنّها توفّر خلاصة لنظريته الأصيلة في هذه المسألة التي توجد متناثرة هنا وهنالك في مؤلفاته الأخرى التي نعرفها ولا نشكّ في أنّ أبا عثمان هو مؤلّفها. وهنا لا ينطق بيلّا عن الهوى فهو خبير بهذه المؤلّفات وطواها طولاً وعرضًا. لا يقف بيلّا عند حدّ هنا في طرح مسألة صحّة ما نُسب إلى الجاحظ من عدمه من المقاطع التي أوردها ابن سعيد في "الحور العين"، ما يدلّ على أنّه يأخذ هذه المسألة على محمل الجدّ لربّما إلى حدّ الإفراط، وما هو في الحقيقة بإفراط وإنّما هو إصرار على معرفة الحقيقة أو الاقتراب منها قدر المستطاع، فيقول متداركًا: "حتّى لو سلّمنا أنّ هذه المقاطع مزوّرة ولا تمتّ بِصِلَة إلى الجاحظ من حيث تأليفها، فإنّه ينبغي أن نعترف بالجميل لمَن وُفّق في أن يجمع

(1) "آراء الجاحظ في الأمم المتحضّرة والعقائد الدينيّة"، ص65.

أفكارًا عزيزة على الجاحظ، ويرتّبها ويقدّمها بطريقة أكثر تجانسًا وتنظيمًا وأفضل ممّا عليه أغلب المؤلّفات التي لا نشكّ في صحّة نسبتها إليه، هذا الممثّل للأدب الذي لا يمكن مقارنته بأحد ولا نظير له لدى الكتّاب العرب"[1]. إلّا أنّه لا يتردّد إذا ما توفّرت له الحجج الكافية أن ينفي نفيًا مُطلقًا نسبة مؤَلَّف ما إلى الجاحظ، وهذا ما فعله مع "كتاب التاج" الذي قام بترجمته إلى الفرنسيّة[2]. يعتقد بيلّا، كما أشار إلى ذلك في مقدّمة هذه الترجمة، أنّ موضوع هذا الكتاب الذي يعتبره من جنس الأدب هو بالأساس تعليم أصول ما يسمّيه بـ"البروتوكول" الذي ينبغي احترامه في بلاط الملوك والخلفاء، مثل ضرورة وضع ستار بين الخليفة وحاشيته حفاظًا على هيبته، ويلمس فيه بيلّا آثارًا واضحة لعادات الملوك الساسانيين القدامى[3]. لكنَّ الأهمّ بالنسبة إليه هو أنّ الكتاب لا صلة له بالجاحظ، وأنّه ليس ثمّة شكّ في أنّ مؤلّفه يتخفّى زورًا وراء الجاحظ. يقول بيلّا: "لا أجد أثرًا للجاحظ في هذا الكتاب رغم محاولات مؤلّفه إيهامنا بذلك... تكفي قراءة بعض الصفحات من الكتاب حتّى يتبيّن لنا أنّ الأسلوب ليس أسلوب أبي

(1) المقال نفسه، ص 65.

(2) *Le Livre de la Couronne*: ouvrage attribué à Ǧāḥiẓ, traduit par Charles Pellat, Paris, Ed Les belles Lettres; 1954.

(3) مقدّمة بيلاّ لترجمته لكتاب التاج (بالفرنسيّة)، ص8-9.

عثمان الذي عهدناه، وكذلك تركيب الجمل رغم الجهد الواضح في تصنيف مواده ليس هو الذي ألفناه لدى الجاحظ في كتاب الحيوان على سبيل المثال. ولذلك قرّرنا أن نتّخذ موقفنا بوضوح وهو المتمثّل في نفي نسبة هذا الكتاب إلى الجاحظ نفيًا مطلقًا دون أن ندّعي تبرير موقفنا بحجج تخلو من الذاتيّة تمامًا ولا أن نقترح بديلاً للجاحظ لننسب الكتاب إليه"[1]. ولذلك يدعو بيلّا إلى ضرورة التحرّي الشديد عندما يتعلق الأمر بالجاحظ، فلابدّ من أن تخضع المؤلّفات التي تُنسب إليه لنقد وتمحيص صارم ودقيق قبل أن تُنشر باسمه[2].

وعلى هذا النحو لا يتردّد بيلّا في الصدع برأيه وقول الحقيقة كما هي، والكشف عن بطلان خبر من الأخبار، ولكنّه يقف في منزلة بين المنزلتين على طريقة المعتزلة -وأستاذه الجاحظ أحد أئمتهم- إذا لم تتوفّر له الحجج الكافية لنفي صحّة خبر ما نفيًا تامًا حتّى لو مال إلى تكذيبه كالخبر الذي تناقلته بعض المصادر العربيّة القديمة ونسبت روايته إلى الجاحظ نفسه عن دعوته من الخليفة المتوكّل في سامرّاء ليسهر على تعليم أحد أبنائه قبل أن يتراجع ويصرفه عن هذه المهمّة، مع تمكينه من ألف أو ألفي درهم، وذلك لدمامة خلقته. هنا

(1) المقدّمة نفسها، ص13-14 .
(2) المقدّمة نفسها، ص11.

يتساءل بيلّا: إلى أيّ حدّ يمكن أن نعتبر هذا الخبر صحيحًا؟ قبل أن يجيب: مبدئيًّا نرى في هذا الخبر تزويرًا للحقيقة، أي الأرجح أن يكون مُولَّدًا، لاسيما أنّ الجاحظ قد ربطته بالمتوكّل - على ما يبدو- علاقة أمتن من خلفاء بني العبّاس الآخرين الذين عاصرهم. ولكنْ، إذا صحّ هذا الخبر، يقول بيلّا، فهذا يبرّر ما يقوله ابن شُهيد عن كون الجاحظ لا يمكن بسبب دمامته أن يضطلع بوظيفة كاتب للدولة، وهذا ما يفسّر عداءه للكتّاب الذين حبّر رسالة شهيرة في ذمّهم.[1] غير أنّه إذا ما توفّرت الحجج لدحض صحّة خبر دحضًا تامًا مرّة أخرى، فإنّ بيلّا لا يتردّد في ذلك، خاصة إذا تعلّق الأمر بصديقه الجاحظ! يسوق بيلّا في هذا السياق نادرة شهيرة ترويها بعض المصادر القديمة والحديثة على لسان أبي عثمان بطلها هو نفسه حدثت له مع امرأة أرادت أن تنقش على خاتمها صورة الشيطان ولم تجد أفضل من أبي عثمان شبيهًا له؛ معتقدًا أنّها تندرج ضمن الأسطورة [بل قل: الخرافة السلبيّة][2] التي نُسجت حول الجاحظ، وهي كجنسها من النوادر قد وردت في كتب

(1) "الجاحظ في بغداد وسامرّاء"، ص48-49.

(1) لعلّه من الأنسب للحديث عن النوادر التي موضوعها دمامة الجاحظ عوض استعمال مصطلح أسطورة (mythe) كما فعل بيلاّ استعمال مصطلح "الخرافة السوداء" (Une légende noire) الذي يطلقه الفرنسيون على النوادر أو القصص التي لا أساس لها من الصحّة أو المبالغ فيها والتي ترسم صورة سلبيّة مسيئة عادة إلى رجل أو امرأة من المشاهير.

النوادر والأجوبة المستملحة أو في المدوّنات الشعبيّة ولا أثر لها -على حدّ علمه- في كتب التراجم ومؤَلّفات الأدب الرصينة الموثوق بها، وأبطالها يتغيرون من رواية إلى أخرى، فإذا لم يحلّ أبو نواس مكان الجاحظ في النادرة، يحلّ محلّهما شخص يُعرف بأبي حسام، كما أنّه تطرأ بعض التغييرات على النادرة ذاتها مع الحفاظ على نفس الموضوع، لكن بحلول نجّار مكان صائغ طلبت منه امرأة أن يصنع لها دمية في صورة شيطان لتخيف بها أطفالها. انتبه بيلّا إلى أنّه وقع تأليف الكثير من النوادر المتعلّقة بالمعلّمين بوحيٍ من الجاحظ الذي اهتمّ بمنزلة هؤلاء في عصره وكشف عن حمق البعض منهم وغفلتهم؛ سواء في البيان والتبيين، أو في رسالته في المعلّمين التي انتهت عبر الرواية ومن خلال العصور إلى أن تُنسب إلى أبي عثمان. وقد أورد بيلّا الكثير من نوادر المعلّمين التي نُسبت إليه واستقاها من المصادر القديمة، مثل "نزهة الأدباء" متسائلاً عن مدى صحة نسبتها إليه مُرجّحًا إمكانية أن تكون من نسج الخيال الشعبي، لاسيما أنّ الجاحظ كان يفرّق، كما ورد على لسانه في كتابه البيان والتبيين، بين فئة المعلّمين الأصيلين الشرفاء وفئة من المعلّمين الدخلاء على هذه المهنة الشريفة في ذاتها الذين شَهَّر الجاحظ بحمقهم[1].

(1) الجاحظ في بغداد وسامرّاء، ص 49-50.

مختارات من كتابات بيلاّ
الفكريّة والإبداعيّة

- من خاتمة مقدّمته لرسالة في الحلم كتبها باللغة العربيّة :

قال بيلّا: "ربّ أنعمت فزد. أطال الله بقاءك وأدام نعمته عليك، وجعلك ممن يشكر للباحثين كدودهم وللعلماء جهودهم، ويحمد للمستشرقين إخلاصهم وللمستغربين تجرّدهم، ولكلا الفريقين سعيه الحثيث في إحياء تراث الشعوب وانكبابه على دراسة لغاتهم ونشر آدابهم دفاعًا عنهم، وتنويهًا بمآثرهم، وتخليداً لما يستحقّ أن يُخلّد الى الأبد من رسوم حضارتهم، والسلام".

(نقلاً عن: الطيب العشّاش، "شارل بيلّا" في كرّاسات تونسيّة: عدد: 139-140، 1987.

- من كتابه "سيرة مُستعرب" (بالفرنسيّة) بيلّا شاهدًا على وفاء سيدي لَحْسن المغربي ص 40-41 :

في ناحية ميسور [تقع في إقليم بوليمان في المغرب وتبعد عن مدينة فاس حوالي مائتي كيلومتر] قمت بعمل ميداني

يتعلّق باللهجة المحلّية ضمن توجُّه في البحث يُطلق عليه بالجغرافيا اللّسانيّة... كما قمت بجمع نصوص من العامّية المغربيّة من تأليف رجل متعلّم كان يدوّنها بحروف عربيّة قبل أن يمليها عليّ... كان مؤلّف هذه النصوص يرتزق من وظيفته "فقيه" لدى "قايد المنطقة" ويُدعى "قدّور"، أي عبارة عن الكاتب الخاص له. كان الرجل من الشرفاء واسمه سيدي لحسن بن محمّد بن عبد المالك، ولكن لم أتثبّت من شجرة نسبه لأتحقّق من صحّة نسبه الشريف. على أيّ حال كان الرجل يتقاضى 50 فرنكًا شهريًّا من هذه الوظيفة، أي ما يزيد قليلاً عن ثمن السجائر التي كنت أدخّنها، وهو أمر جعلني أشعر بالسخط على هذه المظلمة التي يعيشها. في نهاية المطاف وُفّقت في أن يقع توظيفه لدى قاضي الناحية بصفة عدل [إشهاد أو تنفيذ] وبأجر يساوي خمس مرّات أو ستًّا الأجر الذي كان يتقاضاه من قبل بصفته "فقيهْ". ليس معنى ذلك أنّ الرجل بهذا الأجر الجديد بدأ ينعم برخاء العيش ولكن كنت أعلم أنّ العدول، علاوة على مرتّباتهم الشهريّة، كانوا بالنصيب الذي يحصلون عليه من الأموال المستحقّة التي يدفعها المتقاضون [إلى الدولة] يمكنهم أن ينعموا بالعيش الكريم. حدث هذا سنة 1939. بعد 29 سنة تفاجأت كثيرًا لمّا وصلتني رسالة من فقيهي القديم يقول لي فيها: إنّه خلال هذه

الفترة التي انقطعت أخباري عنه لم ينفكّ من التفكير فيّ والانشغال بما آل إليه أمري محاولاً بشتّى الطرق الاتصال بي ليعبّر عن اعترافه لي بالجميل عن الخدمة التي قدّمتها إليه... أعلمني كذلك بأنّه بفضل الوظيفة التي ساعدته في الحصول عليها، استطاع أن ينفق على دراسة ابنه الذي صار متفقّدًا (مفتّشًا) للتعليم الابتدائي، وهو الذي مكّنه من العثور على عنواني لمراسلتي. خلال مسيرتي المهنيّة تنكّر لي الكثير... في حين أنّ طلبتي من المغرب أو المشرق، سواء من المسلمين أو اليهود أو النصارى، قد عبّر جُلّهم لي عن آيات الامتنان والاعتراف بالجميل، وهو اعتراف من شأنه أن يعوّضني تعويضًا كافيًا وزيادة عمّا لحقني من خسّة هؤلاء الجاحدين الذين ليس ثمّة ما يعادل رغبتهم في تحقيق مصالحهم بأيّ طريقة إلّا وضاعتهم وانحطاطهم.

- **"محمد أركون بين فرنسا وأمريكا"** :

أتذكّر أنّه سنة 1968 دُعي محمّد أركون إلى لوس أنجلوس لقضاء فصل دراسي هنالك مدرّسًا وباحثًا، وكان قد قدّم مطلبًا ليُرخَّص لـه في الغياب إلى العميد دوري (Durry) الذي تردّد في إرساله إلى الوزارة لكون المعْنِيّ بالأمر لم يكن إلّا مساعدًا للتعليم العالي في تلك الفترة. عندما استشارني

العميد في الأمر أجبته قائلا: "يمكن أن تحصل لك فكرة بهذه المناسبة عن مدى القيمة التي يحظى بها قسمنا: قسم الدراسات العربيّة والإسلاميّة عندما ترى أنّ مجرّد أستاذ مساعد يُنظر إليه بوصفه جديرًا بأن يُدعى إلى أمريكا للتدريس هنالك. فكيف سيكون عليه الأمر إذا تعلّق الأمر بأساتذة وصلوا إلى أعلى المراتب الجامعيّة. "كان العميد دوري مختصًّا في اللاتينية ومنتميًّا إلى مدرسة عريقة في هذا المجال. كان يعتقد، وهذا ما قاله لي حرفيًّا: "أنّ المهمّة الوحيدة التي يمكن للمختصّ بالعربيّة القيام بها هي ترجمة القرآن! "لقد كانت هذه الزيارة العلميّة إلى لوس أنجلوس هي الأولى لمحمّد أركون خارج فرنسا، ومنذ ذلك الوقت لم تتوقف الدعوات الموجهة إليه للقيام بمهمّات علمية في الولايات المتحدة الأمريكيّة.

- منهجه في تدريس اللغة العربيّة بالجامعة ص 80-81 :

لكن بتعييني على كرسي اللغة العربيّة الفصحى سنة 1951، رأيت أنّ الوقت قد حان لاعتبار العربيّة لغةً حيَّة وتعليمها كما هي عليه. وعوض أن أتيه في جزئيات النحو وتفاصيله ومتاهاته التي كنت أجهلها ولم أدرسها قَطّ، انبريت أُعلّم الطلبة قواعد النحو الأساسيّة الضروريّة مكتفيًا بقواعد الإعراب والتصريف التي لا غنى عنها، ثمّ بسرعة كبيرة رأيت أنّه من الأجدى الاعتماد على النصوص. وهكذا قمت بتجربة سرعان ما أثبتت

نجاعتها: ففي السنة الأولى كنت أقترح على طلبة اللغة العربيّة الحديثة مقتطفات من الصحف حتّى أطلعهم على أكثر أشكال العربيّة نبضًا بالحياة. وبما أنّ حائزًا على شهادة تخرُّج من معهد اللغات الشرقيّة الحيّة في اختصاص العربيّة لا يمكن له ألّا يكون على معرفة بالقرآن، ولو قليلاً، كنت أُخصّص السنة الثانية لأشرح منه بعض السور القصيرة قبل أن ألج إلى دراسة بعض مميّزات الأدب العربي القديم. أمّا في السنة الثالثة والأخيرة فيتكفّل مساعدي بتدريب الطلبة على التعبير الشفهي لأنّه ينبغي عليهم في آخر السنة أن يكونوا قادرين على إجراء محادثة على أحسن وجه باللغة العربيّة المستعملة في الصحافة المكتوبة أو الشفهيّة. أعتقد أنّني توصّلت إلى نتائج ممتازة بالنظر إلى عدد طلبتي الوفير الذين تابعتهم بعد مغادرتي المعهد حتّى حصولهم على شهادة الإجازة أو التبريز، وفي بعض الأحيان الدكتوراه.

- العربيّة لغة حيّة وليست ميّتة كما يعتقد البعض، ص97-98 :

منذ سنة 1943، وكنت قد تعلّمت من تجربتي السابقة، عقدت العزم على القيام بحملة الهدف منها هو إبراز أنّ استعمال العربية الفصحى الحديثة في الأحاديث اليوميّة ليس وهمًا من محض الخيال وإنّما هو حقيقة لا جدال فيها، وبدأت بكتابة مقال بعنوان: "العربيّة لغة حيَّة" نشرته في مجلة

أرض الإسلام (Terre d'Islam) عارضت فيه كُتّابًا من بداية القرن العشرين أجهدوا أنفسهم لإثبات أنّ العربيّة لغة ميّتة وقد انقرضت منذ زمان. في تلك الفترة أعجبني جرد للمفردات الصحفيّة العربيّة صدر في الجامعة العبريّة بالقدس، وكان مُرفقًا بعدد المرّات التي تُستعمل فيها كلّ كلمة في المدوّنة التي وقع فرز مفرداتها. يُسهّل هذا الجرد تعليم اللغة لأنّه يُمكّن، من خلال النظر في درجة تواتر المفردات التي تمّ إحصاؤها، من ضبط نظام لما ينبغي تعلُّمه منها أوّلاً بأوّل. فمن بضعة آلاف الكلمات التي وقع إحصاؤها يُشكّل ما يناهز ألفين وسبعمائة كلمة -مع تردُّدها- بالطبع في النصوص المختارة حوالي التسعين في المائة من المفردات المستعملة فيها، ما يعني أنّه يمكن للمرء أن يكتسب في وقت وجيز ما يعادل مثلاً 900 كلمة في سنة واحدة، أي معجمًا من المفردات الكافية؛ ليس فقط لقراءة صحف بأكملها، وفي أسوأ الحالات مقالات يوميّة تصدر فيها، وإنّما أكثر من ذلك أن يُوفَّق في إجراء حديث حول مواضيع مختلفة من الحياة اليوميّة العاديّة. انطلاقًا من هذه الأفكار الأساسيّة استطعت تأليف كتابي "اللغة العربيّة الحيّة" الذي اعتُبر تجديدًا مفيدًا في مجال تعليم اللغة العربيّة. وكان من محض الصدفة أن تزامن صدور هذا الكتاب مع التحاقي بالتدريس بمعهد اللغات الشرقيّة الحيّة. كنت سعيدًا

لكون هذا الكتاب المدرسي لم يثر أيّ انتقادات تُذكر. لقد أعلمني البعض بوجود أخطاء وبعض الهنات فيه عملتُ على تصويبها وتداركها في أثناء إعدادي للطبعة الثانية، ثمّ سلّمتُ الكتاب إلى الناشر وتركته يتصرّف في طبع ما يراه ضروريًّا من النسخ دون أن يُعلمني بشيء، حتّى أنّني إلى اليوم لا أعرف عدد النسخ التي أصدرها منه. في أثناء سفراتي المتعدّدة التقيت بكثير من الناس الذين لا أعرفهم أثنوا عليَّ وشكروني على مساعدتي لهم من خلال هذا الكتاب على تعلُّم اللغة العربيّة. وإذا كان بلاشير قد ساعد عبر ترجمته للقرآن إلى اللغة الفرنسيّة على اعتناق الكثير من سكان أفريقيا السوداء للإسلام، فإني من ناحيتي قد ساعدت على تعريب عدد لا بأس به من المسلمين الأفارقة. إنّ الذين عابوا عليَّ تغافلي عن بعض المصطلحات المفيدة التي لم أدرجها في كتابي لم يأخذوا على الأرجح بنصائحي. فلو نسج الواحد منهم على منوالي وأدرج في النسخة التي بحوزته وبين أوراقها جذاذات سجّل فيها ملاحظاته، لكان في إمكانه المساهمة من جانبه في صياغة مضامين هذا الكتاب وإثراء محتوياته. ففي منتصف القرن العشرين كنت مجبرًا على اتباع المنهج الأقلّ تكلفة والمتمثّل في تسجيل الكلمات العربية بخطّ يدي إلى اليمين قبل أن أضع أمام كلّ واحدة منها الكلمة التي تطابقها باللغة الفرنسيّة إلى اليسار، وأكتفي فقط بطبع

المقدّمة والفهرس الفرنسي، لكنْ، لا أحد وجَّه لي انتقاداً متعلّقًا بهذا الاختيار.. أمّا بعد انتهائي من إعداد مخطوط كتاب "اللغة العربيّة الحيّة" فقد أصدرت كُتيّبًا بعنوان "اللغة والآداب العربيّة" أعددته بطلب من دار أرمون كولان للنشر (Armand Colin)، وقد درَّ عليّ مبلغًا ماليًّا متواضعًا، ولكنّه كاف لتحقيق أمنية رعيتها لعشر سنوات تتمثّل في اقتناء آلة كاتبة. فبواسطة هذه الآلة تمكنتُ، وأنا أتأهّب لمغادرة معهد اللغات الشرقيّة الحيّة، من طبع كتابي "مقدّمة لدراسة اللغة العربية الحديثة" الذي يمثّل حصيلة ما يحتاج مختصّ بالعربيّة إلى معرفته في النحو، وقد عملت على أن أُضمّنه قائمة من المفردات من جهة وعرضًا نحويًّا من جهة أخرى.

- بيلّا محقّقًا للمدوّنات العربية القديمة : مروج الذهب للمسعودي نموذجًا، ص76-77 :

ما دمت قد تحدّثت عن مروج الذهب، سيكون من الأهمّيّة بمكان أن أقصّ مغامرتي مع هذا الكتاب الضخم والمتاعب التي سبّبها لي. لقد راودتني فكرة الانشغال بهذا الكتاب سنة 1957 على هامش محاضرة دُعيت لإلقائها في كراتشي ووقع على إثرها لفت انتباهي إلى أنّ المسعودي كان قد تميَّز بإعارته الشعوب التي لا تُدين بالإسلام اهتمامًا لافتًا

للانتباه، فقرّرت، تبعًا لذلك، أن أنجز طبعة منقّحة من كتاب مروج الذهب، وأن أقوم على وجه الخصوص ببلورة ما يمكن أن أصطلح عليه بموسوعة مسعوديّة وعرضها في شكل فهرس يتضمّن إيضاحات ثريّة تتعلّق بالشخصيات والأمكنة والمفاهيم التي وردت في مروج الذهب، ولم تكن هيئة تحرير دائرة المعارف الإسلاميّة تعتزم أن تخصّص لها مقالات تعرّف بها. كنت أنوي من خلال هذا العمل أن أوفّر للمختصين في اللغة والآداب العربيّة والدراسات الإسلاميّة والمؤرّخين أداة للعمل صالحة للاستخدام وقائمة مصادر ومراجع مفيدة لهم، لاسيما أنّ الصيغة التي اقترحها باربييه دو ماينار (Barbier de Meynard) لم تعد ناجعة من الناحية العمليّة لكونها تفصل بين النصّ العربي وترجمته [إلى الفرنسيّة]، كلّ من النصين العربي والفرنسي يُتبع بفهرس مكتوب باللغة المطابقة له، وهو ما يربك القارئ ولا يساعده على فهم الكتاب بالسهولة المطلوبة. فإذا كان بإمكاني أن أنشر الجزء الأول من الخمسة أجزاء من مروج الذهب مُترجمًا إلى الفرنسيّة سنة 1960، تبعه سنة 1962 الجزء الثاني، وسنة 1966 الجزء الثالث، فإنّ طبع ما تبقّى من الكتاب قد توقّف فترة طويلة لكون الناشر المكلّف بطبع الجزئين الرابع والخامس وكذلك الفهرس، قد تعرَّض لصعوبات جمّة في طبعها. وكان لابدّ من الانتظار أكثر من عشرين سنة

حتى يُطبع الجزء الرابع سنة 1989، ومزيد الانتظار ليرى الجزء الخامس النور. ومن المتوقع (سنة 1991) أن يصدر هذا الجزء الأخير في السنة القادمة بفضل تقنية حديثة تساعد على طبعه بسرعة. [إلّا أنّ هذا التأخير الكبير في طبع الكتاب بأجزائه الخمسة الذي امتدّ على ثلاثة عقود كاملة قد وضعني في ورطة حقيقيّة من الناحية العلميّة]. فقائمة المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في إعداد مروج الذهب لتُطبع مع الكتاب، وأعددتها منذ فترة طويلة مضت، إنْ لم يكن قد عفا عليها الزمن وانتهت صلاحيتها، فهي، في أحسن الحالات، أبعد ما يمكن من أن تكون حديثة وبنْتَ زمانها. كنت على وشك أن أتراجع عن المحافظة على الفهرس الفرنسي كما تصوّرته وأنجزته منذ فترة بعيدة لو لم تُعَزِّني القدرة لأسباب صحّية على أن أطعّمه بالإضافات التي كنت أتمّناها. ولكنّ اعتقادي بأنّ هذا الفهرس ما زال رغمًا عن كلّ نواقصه مفيدًا قرّرت فجأة نشره دون أيّ تغيير، عوض أن أتقيّد بإحالته كما عقدت العزم على نظيره الفهرس العربي الذي رأى النور في تاريخ [حتى ولو كان متأخّرًا] يمكن أن نعتبر أنّ قائمة المصادر والمراجع فيه، في جزء كبير منها، ما زالت صالحة. لقد نلت الشرف من الجامعة اللبنانيّة، وغنمت صداقتها ممثلة في رئيسها فؤاد البستاني حين أخذت على عاتقها مهمّة نشر مروج الذهب

في نسخته العربية التي أعددتها للنشر في أجزائه الخمسة التي صـــدرت ببيـــروت على امتداد السنوات الفاصلة بين 1966 و1974. أمّا الفهرس الذي انتهيت منه سنة 1974 فقد صدر بعد خمسة أعوام من هذا التاريخ، أي سنة 1979، دون أن يعاني كثيرًا من الحرب التي ابتلي بها لبنان. فقد نجا من التدمير بفضل يقظة عَمَلَةِ المطبعة الكاثوليكية الذين لم أكفّ يوما عن التعبير لهم عن امتناني لأنّهم قد نجحوا في ظروف عمل عصيبة في تركيب الثمانمائة صفحة الأخيرة قبل أن تسقط قنبلة على ورشة المطبعة وتُصيّر المخطوط الذي أمددتهم به أشلاء متناثرة".... ورغم كلّ مآخذنا على الطبعات الشرقيّة الراهنة للمدوّنات العربيّة القديمة التي لا يمكن الاطمئنان إليها [لغلبة الطابع التجاري عليها أو التسرُّع في إنجازها على حساب الجودة العلميّة]، فإنّ ما ينبغي الإقرار به هو أنّ مهمّة طبع هذه المدوّنات وإعادة طبعها ونشرها أصبحت ملقاة على عاتق العرب، لاسيما أنّ طبع أقصر نصٍّ عربي في الغرب أصبح مكلّفًا جدًّا. فقد ولّى الزمن الذي تكفّل فيه دو كوج (De Goeje) والفريق العامل معه بمدينة لايدن بطبع تاريخ الطبري وسلسلة من مؤلّفات الجغرافيين العرب، كما ولّى الزمن الذي كانت فيه المطبعة الرسميّة الفرنسيّة قادرة على أن توفّر لعموم القرّاء طبعة في تسعة أجزاء من كتاب مروج الذهب للمسعودي بوضع

النصّ العربي الأصلي في كلّ جزء حذو ترجمته الفرنسيّة.

- **بيلّا يروي قصّة علاقته بالجاحظ ومؤلّفاته، ص75-76:**

عندما وصلت إلى باريس سنة 1947 كان هاجسي الأساس هو الحصول على نسخ مصوّرة (ميكروفيلم) عن أكبر عدد ممكن من مخطوطات الجاحظ المحفوظة في مكتبة البودليان (في جامعة أكسفورد)، وفي المكتبة الأمبروزية (بميلانو)، وفي برلين أو في إسطمبول. وباستثناء بعض المقاطع من مؤلفاته التي حصلت عليها، والتي كانت منفصلة عن سياقها، وبعضها الآخر الذي لم يكن مكتملاً، فإنّ بعض نصوصه التي عثرت عليها كانت كاملة، خاصة كتاب العثمانيّة الذي مكّنني صديقي حميد الله من نسخة مصوّرة منه (ميكروفيلم). أعددت نسخة من هذا الكتاب المهمّ لطبعها ونشرها حين علمت أنّ عبدالسلام هارون، الذي يعجبني منهجه في العمل، قد أصدره في القاهرة. ومن البديهي أن أعمل على أن أتزوّد بنسخة من هذه الطبعة على عجل لأتصفحها. لاحظت أنّ الناشر لم ينتبه إلى أنّ ورقات من المخطوط قد انتقلت من مكانها، من بدايته أو وسطه إلى خاتمته في أثناء حمله أو تقليب صفحاته، ما جعل كتاب العثمانيّة يُختم في هذه الطبعة بجملة مبتورة من وسطها، وهذا يدلّ على أنّ الناشر قد أعاد نسخ المخطوط بصفة آليّة دون أن يعمل على متابعة تفكير مؤلّفه وفهمه. قمت

بكتابة مقال نقدي عن هذه الطبعة التي سهر عليها عبد السلام هـارون ونشرتهـا في مجلّة "أرابيكا" (Arabica)، ما سبّب لي مشكلة معه.. لقد حدث خلاف بيني وبين عبدالسلام هارون بسبب عرض سيئ للطبعة التي أعددتها وسهرت عليها لكتاب البغال للجاحظ نشره في مجلّة معهد المخطوطات العربيّة، وبمقالي النقدي للطبعة التي أعدّها ونشرها لكتاب العثمانيّة الذي أمددت به مجلّة "أرابيكا" صرنا تقريبًا متعادلين. [وفي الحقيقة] كنت قد انتهيت من إعداد كتاب البغال للطبع والنشر وأرسلته إلى القاهرة لهذا الغرض حتّى يحتلّ مكانه ضمن مكتبة الجاحظ. كنت قد سجّلت الكلمات التي ما زلت لم أحسم أمري في ضبط معانيها معتقدًا بأنّه عندما يحين وقت إصلاحي لمسودّة الكتاب تكون دلالات هذه الكلمات قد اتضحت في ذهني ويمكن أن أتغلّب على المصاعب التي اعترضتني. غير أنّ هذه المسودّة التي كنت أنتظر أن تُرسل إليّ من القاهرة لم تصلني ولم أرها قَطُّ. وهكذا، نُشر كتاب البغال دون أن أتمكّن من أن أتدارك ما فاتني فيه من النقائص وأن يخرج هذا الكتاب إلى النور كما أرتضي... في فترة لاحقة كان لا بدّ لي، ولو بصفة متأخّرة، أن ألتفت إلى كتاب البرصان والعرجان والعميان الذي وُجد مخطوط له بزاوية في جنوب المغرب، والذي مكّنني محافظ المكتبة العامة بالرباط بصفة استثنائية من

نسخة مصوّرة (ميكروفيلم) منه سنة 1961، ولكنّ مصريًّا قد وفّر لمحبّي الجاحظ طبعة جيّدة منه في نفس الفترة التي بدأت فيها في استغلال هذه المدوّنة السياسيّة - الدينيّة.

- ص72-73 :

وحتّى أنجز رسالتي للدكتوراه حول الجاحظ كان لا بدّ من أن أعكف على مؤلّفاته التي أُتيح لي العثور عليها والتي كنت قد وعدت نفسي بأن أنشغل بها أكثر عن قرب. فرأيت أنّه من الضروري أن أبدأ بكتاب التربيع والتدوير لكوني استطعت أن أدرك مدى أهمّيته وصعوبة فهمه، وانهمكت فيه تمحيصًا وتدقيقًا في مفرداته ومضامينه حتّى أعددته للنشر، وقد تكفّلت بذلك المطبعة الكاثوليكية ببيروت ليصدر سنة 1955. لا أدّعي بأنّ هذه الطبعة تخلو من كلّ الشوائب، ولكن في العموم لا أشعر بخيبة كبيرة من النتيجة التي توصّلت إليها رغم أنّني أقرّ بأنّني لم أُوفَّق في فهم دلالات بعض المفردات في هذا الكتاب. - على أيّ حال منذ 1950 إلى اليوم قد أحرزت بعض التقدّم في فهمه!... لقد عانيت الأمرّين من أجل ضبط "التربيع والتدوير" في أحسن حال وإيضاح مقاطعه المبهمة وشرح ما يتضمّنه من إيحاءات، ولكنّي تفاجأت في يوم من الأيّام وأنا أورّق مجلّة المكتبة التي كان صاحب مطبعة وناشر

في بغداد يصدرها ويوزّعها مجانًا بمقال عنوانه يقرنني فيه صاحبه بالاسم بكتاب التربيع والتدوير؛ مؤكّدًا أنّ طبعتي للكتاب تخلو من أيّ شروحات تساعد على فهمه، في حين أنّ الإيضاحات والتفسيرات التي أوردتها بالفرنسية ووضعتها في هامش كلّ صفحة من الكتاب، والملاحظات المتعلّقة بأسماء الأعلام التي أثبتتها، والكشف الذي قمت به لمعاني الألفاظ المستعملة، إلى غير ذلك من الملاحظات التي أوردتها، تحتلّ في صفحات الكتاب مساحة أكبر من النصّ الأصلي نفسه. اعتقدت للتوّ أنّ النصّ وحده قد وقعت قرصنته لطبعه بمعزل عن هوامشه، فأرسلت رسالة احتجاج على هذا المقال إلى صاحب مجلّة المكتبة، فنشرها بكلّ أمانة في عدد الشهر الموالي. بعد ذلك بمدّة علمت بما جرى والسبب الذي جعل صاحب هذا المقال ينتقدني دون مبرّر. فعندما سُئل عن السبب الذي دعاه إلى نقدي بتلك الطريقة أجاب بكونه قد رأى فعلاً صفحات كثيرة مكتوبة بلغة يجهلها [الفرنسيّة]، ولكن بدت له وكأنّها لا يمكن أن تكون إلّا عديمة القيمة والأهمّية. وحتّى أتجنّب مثل هذه المواقف مع القرّاء الناطقين بالعربيّة قرّرت ألّا أكتب من هنا فصاعدًا شروحاتي النقدية إلّا باللغة العربيّة ليفهمني حتّى القرّاء الذين يفتقدون إلى الرشد مثل هذا الذي انتقدني دون وجه حقّ.

- ص 64-65- 66-67

وبما أنّ النصيحة التي قُدّمت لي منذ عشر سنوات في الجزائر المتمثّله في إعداد رسالة دكتوراه عن الجاحظ ومؤلّفاته لم تغب أبدا عن ذهني فاتحت جان سوفاجي (Jean Sauvaget) بمشروعي، فتكفّل معي بمطالعة ما كتبه بروكلمان في شأن الجاحظ في كتابه "تاريخ الأدب العربي"، ونبهني كذلك إلى عدم الانسياق إلى إعداد رسالة من نوع "حياته ومؤلفاته". في الحقيقة، إنّ مؤلّفات الجاحظ الأساسية المتوفرة، خاصة كتاب الحيوان كانت طبعاتها سيّئة، وجزء آخر من كتبه ما زال لم يُنشر بعد أو يُطبع وفق القواعد الأكثر حداثة، والكثير من رسائله التي نعرف عناوينها لم يقع العثور عليها بعد. فكان لابدّ بالفعل من العدول عن اختيار موضوع تقليدي. غير أنّ قراءتي لكتاب البخلاء بتأنٍّ وترجمته إلى الفرنسيّة منذ مدّة لم تخلق ألفة بيني وبين أسلوب كاتبه وتوجّهاته العامة فحسب، وإنّما كذلك مع البعض من أصدقائه، ومن هنا وردت إلى ذهني فكرة وصف البيئة التي نشأ فيها، والهدف هو إبراز الكيفية التي يتعرّض فيها كاتب موهوب مثل الجاحظ إلى تأثير بيئته، بل إبراز الكيفية التي يفرز بها مجتمعٌ ما كاتبًا ممثّلاً له وملخّصًا لشتى التيارات التي تميُّزه على المستويات الاجتماعية والثقافية والأخلاقية. بعض قُرّائي يعتقد أنّني، بصفة ما، رائد

لعلم اجتماع الأدب. هذا شرف لا أدعي حيازته، حتى وإن كنت في تناغم مع أصحاب نظريةٍ كان يمكنني لربّما صياغتها بدقّة ولكن لم يكن لديّ لا الميل إلى ذلك ولا القدرة... بدأت إعدادي لرسالة الدكتوراه في أكتوبر 1947 وانتهيت منها في مارس 1950، أي تمكّنت في أقلّ من ثلاثين شهرًا من أن أستثمر المصادر التي أمكنني الاطّلاع عليها، وأن أنتهي من تحرير الرسالة، وأنْ أُعدّ مخطوطًا منها أنسخ منه اثنتي عشرة نسخة، وكذلك النسخة التكميلية التي كنت قد انتهيت لحسن حظّي منها منذ مدّة. لاحظ لي "ليفي بروفنسال" -وكان مقرّرًا- ملاحظة جزئية، أمّا المقرّر الثاني "بلاشير" فلم يجد على ما يبدو ما ينتقده فيها قبل المناقشة. لا أحد منهما وجّهني، أو أكثر من ذلك ساعدني. وهكذا، فمن المحتمل أن أكون قد حقّقت إنجازًا استثنائيًّا [في أن أُعدّ رسالة دكتوراه في أقلّ من ثلاث سنوات] لا ينبغي أن أخجل منه ولا أن أهنّئ نفسي به. ورغم أنّه قد مضى عليها الآن أكثر من أربعين عامًا (سنة 1991) ونفدت طبعتها [الفرنسيّة] من المكتبات، أعتقد أنّها ما زالت مفيدة رغم بعض النقائص التي اعترتها، والدليل على ذلك أنّه ما زال هناك من يعرفها ويستشهد بها، بل هي معروفة حتّى في الاتحاد السوفيتي حيث بلغني أنّ هناك نيّة لترجمتها إلى الروسيّة، ولكنني لا أعلم إذا ما وقع متابعة الترخيص الذي

أذنت به لترجمتها. أمّا النسخة التكميلية للرسالة فقد عكفت على إصلاح بعض الأخطاء البسيطة فيها قبل أن أرسلها إلى سيّدة مصريّة طلبت مني إعادة طبعها بما أنّ طبعة سنة 1951 قد نفدت.

مختارات ممّا قيل عن بيلاّ

- من تمهيد ابنته ايفيت (Yvette) لمذكّراته : "سيرة مستعرب" (بالفرنسية)، ص7 :

طلب منّي والدي شارل بيلاّ أن أنشر مذكّراته عند وفاته، وكان قد انتهى من كتابتها للتوّ ومدّني بها لقراءتها. هذه الوفاة التي حدثت فجأة بعد ذلك بمدّة قصيرة. لقد تأثّرت تأثّرًا بالغًا بالقسم الأوّل من المخطوط الذي يتحدَّث فيه عن نشأة هذا الذي سيكون في قادم الأيّام مختصًّا باللغة والآداب والحضارة العربيّة. واكتشفت فيه من خلال نزوعه للحساب الدقيق؛ سواء لمداخيله، أو مصاريفه الشخصية، أو التي تتعلَّق بالمال العام الذي لم يجعلني بسخائه [معي] أشعر به قطّ في حياته، القلقَ الدائمَ لامرئٍ ينحدر من عائلة فقيرة، كان منشغلاً أوّلاً بألاّ يثقل كاهلها بمصاريف دراسته، ثمّ بمساعدتها على تلبية حاجياتها المعيشيّة الضروريّة، لاسيما في الظروف الصعبة للحرب العالميّة الثانية وبُعيدها، وأن يبتهج ويشعر بالغبطة في مرحلة لاحقة من حياته لمجرّد أنّه حصل على مبلغ مالي مكافأة له على عمل [فكري] مُضنٍ قام به، حتى وإنْ كان هذا

الملغ في الحقيقة زهيدًا [ولا يسدّد ثمن أتعابه] مكّنه، على سبيل المثال، من أن يقتني آلة كاتبة، أو حصل على امتيازات بفضلها كان بإمكانه التفكير في شراء شقّة. هذا القلق الذي يعود في نظري إلى هوسه بأن يكون أمينًا ونزيهًا، وإلى ذعره من الإسراف والتبذير وحرصه الدائم على الاقتصاد في أموال الدولة. غير أنّه لمن دواعي سروري كذلك أن أقف من خلال "سيرة مستعرب" على أهمّ الأحداث التي مرَّ بها والدي في حياته وخطّها برهافة حسّه ومشاعره، وكذلك روحه المرحة ونوادره الطريفة التي رواها لنا وهو يضحك بملء فؤاده، وأن أكتشف رومانسيته الحالمة التي تنمّ عن نقاء سريرته وطيبة قلبه.

غير أنّني لم أعثر في القسم الثاني من مذكّراته على الرجل الذي عرفته المتفائل إلى آخر رمق من حياته، والذي كان يأمل أن يشفى من مرض ألمّ به بعد أن استطاع قبل ذلك أن يتغلّب على داء السرطان الذي كان قد أصيب به أوَّل مرَّة وشُفي منه. لم أعثر على الرجل السعيد بالإنجازات التي حقَّقها والراضي عن نفسه تمام الرضا والذي غنم، وقد عشت ذلك عن كثب، المحبّة والمجد طيلة حياته، وهو أمر يندر وجوده [في حياة الآخرين]، وهو الذي صرّح إلى ممرّضة، وكان طريح الفراش قبل وفاته بيوم، أنّه كان سعيدًا جدًّا في حياته. كما لم أعثر على الرجل المفعم بالثقافة الإسلامية الذي يعمل على غرار

العرب الذين عاشرهم طويلاً بمبدأ الجبرية والاستسلام للقضاء والقدر، لكن ما أن باءت كلّ محاولات إنقاذه من الهلاك بالفشل حتى ظهر بمظهر الفلاسفة الرواقيين: يتقبّل في صمت المظالم التي تعرّض لها، لاسيما أنّنا نقرأ حكمة عربيّة عزيزة عليه نُقشت على السيف الذي أُهدي إليه تكريمًا له على أعماله الأكاديمية تقول: "كُنْ حَليمًا تَسُدْ".

لقد لاحظت من خلال رواية والدي للتقلّبات التي عاشها في حياته، أنّ هذا الرجل العادل النزيه الذي كان حريصًا على أن يكون مثالاً يُحتذى به في الصرامة والإنصاف والاستقامة في العمل، والذي لم يُخْفِ خيبته من بعض زملائه [في الجامعة]، بل من بعض تلامذته، قد أصبح بتأثير من المرض، وكذلك بسبب وفاة زوجته، رجلاً مكلومًا، منكسر الخاطر. ولهذا قرّرت أن أحتفظ لنفسي ولعائلتي بهذا الذي كان يعزّ عليه: مخطوط "سيرة مستعرب". ولكن شاءت الصدفة أن يلتقي زوجي بالسيّد غُزّي (Ghozzi) لتتحقّق أمنية شارل بيلّا في أن ترى سيرته النور بفضل سخاء هذا الناشر الباريسي الذي نودّ هنا أن نعبّر له عن امتناننا واعترافنا بالجميل.

- من مقدّمة فان دونزل (Van Donzel) سكرتير التحرير في دائرة المعارف الإسلاميّة لمذكّرات بيلّا "سيرة مستعرب" (ص9-11)، وهي في الأصل خطبة ألقاها بمناسبة اليوم الذي نُظم في جامعة السوربون بباريس في 31 مارس 1993 وفاء لذكرى شارل بيلّا بعد حوالي سنة من وفاته :

لقد كان خطّ شارل بيلّا يستعصي أحيانًا على القراءة من قِبَل بعض أعضاء الفريق العامل معه في أسرة تحرير دائرة المعارف الإسلاميّة. فكان يقع الاستنجاد بي لإيضاح ما التبس منه في أذهانهم. ويعود السبب في ذلك إلى أنّ بيلّا كان يكتب بخطّ يده مقالاته وترجماته إلى الفرنسيّة من الإنجليزية والإيطاليّة والإسبانيّة والعربيّة... كان ينهض باكرًا مع الساعة الخامسة صباحًا ليعمل ساعتين كلّ يوم لصالح دائرة المعارف الإسلاميّة قبل أن يلتحق بمكتبه في الجامعة ويذهب لإلقاء دروسه. وقد دأب على ذلك منذ أن خلف ليفي بروفنسال بعد وفاته سنة 1956 على رأس دائرة المعارف هذه.. ودون أن نقلّل من أهميّة زملائه الأنجلوسكسونيين والألمان كان بيلّا، ولا أحد غيره، يستحقّ عن جدارة لقب العمود الفقري" لدائرة المعارف الإسلامية الذي أطلقناه عليه. فمن دونه هو، بمعارفه الواسعة وثقافته الغزيرة وأخلاقه المثاليّة في العمل، لم يكن ممكنًا أن تكون دائرة المعارف الإسلامية على ما هي عليه من الجودة

والإتقان. فهذا المعْلَمُ شيَّد صرحه شارل بيلّا، لا لشخصه ولا من أجل مجده الذاتي وإنّما للاختصاص الذي نذر له حياته: اللغة والآداب العربيّة والحضارة الإسلاميّة، هذا الاختصاص الذي كان أفضل مَنْ يمثّله أحسن تمثيل عن جدارة واستحقاق وبكلّ شرف هو شارل بيلّا دون منازع.

أمّا عن معرفته باللّغة الإنجليزية، فأنا شخصيًّا لم أستمع إليه يومًا يتحدَّث هذه اللغة ولكنّ معرفته بها كانت ممتازة. على حدّ علمي.. كان حريصًا على إتقان اللغات، مثل الفرنسية، والعربيّة، والإسبانية، وغيرها من اللّغات، وقد أسرّ لي مرّة أنّه كان في محاضراته التي يلقيها باللغة الإنجليزيّة في الولايات المتحدة الأمريكيّة يلتجئ إلى أن يضع في نصّ محاضراته بدقّة علامات صوتيّة تهديه إلى النطق الصحيح وهو ما لم يكن مضطرًّا للقيام به عندما يلقي محاضراته بالعربيّة الفُصحى!

سأكتفي ببعض الأمثلة فقط لأبيّن مدى كونيّة ثقافة الرجل وسعة علمه وآفاق معرفته الرحبة. إنّ أوّل مقال كتبه بيلّا ونشره في دائرة المعارف الإسلاميّة، هو المتعلّق بالنحوي والمفسّر عبدالله بن إسحاق" من البصرة، وقد صدر في الملزمة الأولى سنة 1954 (ص44، ج1، ط2). بعد ذلك كتب عن شعراء وأعلام ومصطلحات بربريّة، كما كتب في الكثير من المواضيع

التي استلهمها من الذي كان يحلو له أن يسميّه "الجاحظ الخالد". لكنّه ألَّف كذلك مقالات [تتعلّق كلّها بالطبع بالثقافة العربيّة الإسلاميّة] عن الحيوان، مثل: البغل، والفيل، والغراب، والحرباء، والجمل (الإبل)، وعن مدينة البصرة ومِرْبدها، وعن المكدّين والشطّار، والهزل والجدّ، والنادرة والقصّاص الشعبيين... عن الأدب واللغة العربيّة، والدواوين الشعريّة، والهجاء (الخطبة)، والحكايات، والبلاغة، والرواية، والجنس الأدبي، والشعر الشعبي في المغرب العربي الكبير، والأدب العربـي في العراق، والموسوعة العربيّـة. كما انشغل كذلك بالخيمـة في الجزيرة العربيّـة قديمًا، وبالمـرآة، والعربة، والخبز، و[حتّى] أكلة الكسكس والمركاز. وكان من المفترض أن يكتب مقالا عن الخليفة العبّاسي المنصور واسمه مازال مسجّلا في الملزمة التي هي في طور الإعـداد لكونه انشغل بهذا المقال إلى آخر يوم في حياته. أودّ أن أعبر عن تأثّري البالـغ عندمـا قمـت، وأنـا حزين على فراقه، بالواجب المتمثّل في جمع أوراقه ووثائقه حتّى نواصل عملية النشر، هذا الواجب الذي أنا على يقين من أنه كان يرغب في أن نقوم به.

- **محمد الجويلي: نحو دراسة في سوسيولوجية البخل: الصراع الاجتماعي في عصر الجاحظ من خلال كتاب البخلاء، الدار العربيّة للكتاب، تونس، 1990:**

إن شارل بيلّا نفسه الذي يُعدّ من أكبر المختصّين في كتابات الجاحظ، رغم أنّه قدّم للقارئ العربي والفرنسي مادة خصبة تناول فيها شخصية الجاحظ بالدّرس وترجم كتاب البخلاء إلى الفرنسية، ويُعدُّ هذا العمل إنجازًا علميًّا عظيمًا لا يمكن أن نتعامى عنه، فهو لم يتناول البعد الاجتماعي في أدب الجاحظ، رغم أنّه وعد القارئ بذلك منذ بداية الخمسينيات من هذا القرن حين قال في كتابه المسمّى "الوسط البصري وتكوين الجاحظ" في القسم المتعلّق بالوسط الاجتماعي: "إنّ الحدث الاجتماعي باعتباره عاملاً في التطوّر البشري لم يفلت من الجاحظ، فلا بدّ أن يأتي اليوم الذي نضع فيه دراسة مفردة لفلسفته الاجتماعية (monographique)". لكن بيلّا على معرفتنا لم ينجز هذا الوعد ولا نعرف السبب في ذلك، فلعلّه يعود إلى أسباب معرفيّة ومنهجيّة تعود إلى طبيعة اهتمامات الرجل وتكوينه. فهو في الحقيقة مؤرّخ لأدب الجاحظ وشخصيته أكثر مما هو مُفسّر ومحلّل له.

- **من مقدّمة فرحات الدشراوي بعنوان : "إلى شارل بيلّا صانع الدكاتره" (بالفرنسيّة) في كرّاسات تونسيّة (القسم الفرنسي) : مجلّة العلوم الإنسانيّة، محكّمة تصدر بالعربيّة والفرنسيّة عن كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بتونس، عدد : 139-140، الثلاثيان الأوّل والثاني، 1987 (عدد خاص تكريمًا لشارل بيلّا)، ص3-4**

يعود الفضل في لقب "صانع الدكاتره" الذي أُطلق على بيلّا إلى كونه كان عالمًا وباحثًا أكثر ممّا كان أستاذًا مُتميِّزًا، ما جعله يصنع كلّ هؤلاء "الدكاتره" الذين يُعَدُّون اليوم بالعشرات في العالم العربي، إضافة إلى ذلك، فإنّ قائمة أبحاثه ومنشوراته المذهلة هي خير دليل على معرفته الخصبة وعلى إشعاعه المدهش.

وبالفعل، لا يُعدّ شارل بيلّا اليوم مجرّد مختصّ في اللّغة والآداب العربيّة، ولا أحد الأساتذة الكبار في هذا الاختصاص فقط؛ وإنّما هو كذلك -وبالخصوص- "أديب" بأتمّ معنى للكلمة، بمعنى [الانتماء] إلى أدباء "الأخذ من كلّ شيء بطرف" (Polygraphes) الذين كان أحد تلامذتهم المتحمّسين قبل أن يصير واحدًا منهم. ينقلك بيلّا، ولا مناص لك من ذلك عندما تستمع إليه يتحدّث باللغة العربيّة أو يقرأ بها، إلى المسعودي ومروج الذهب، ومن البديهي إلى الجاحظ وابن قتيبه وعصره. ومن فرط ما نذر نفسه في نشاطاته العلميّة منذ وقت مبكّر لأبي عثمان، بصفة خاصة، ومن فرط معاشرته

لمؤلّفاته الضخمة تأثّر به تأثّرًا بالغًا وطُبع ببصمته حتّى إنّه انتهى إلى أن يُفكّر ويكتب مثله. وفي حقيقة الأمر، فالفضل يعود إلى كاتب العصر العبّاسي الجميل، الجاحظ الرائع الذي شكّل تفكير المستعرب والعالِم شارل بيلّا وأسلوبه، بل قُل شكّل طريقته في النظر إلى الحياة وإلى العالَم.

وعلى أيّ حال، فهذا ما يفسّر - حسب نظري - التحفّظ الذي التزم به بعدم الإدلاء برأيه في القضايا السياسية التي وتّرت العلاقة بين فرنسا ومستعمراتها في أفريقيا وآسيا، وخاصة بلدان المغرب الكبير، وبالأخصّ الجزائر منذ نهاية الحرب العالميّة الثانية، وما انجرّ عنها من "حرب مؤلمة" بين الطرفين. ألم يقع تأويل هذا التحفّظ خطأ بكلّ تأكيد - ونحن معشر أصدقائه القلائل من طلبة السربون القدامى نعلم ذلك حقّ العلم لكونه لم يكن يتردّد في أن يسرّ إلينا بمشاعره الحقيقية تجاه مثل هذه القضايا - باعتباره شكلاً من أشكال العداء غير المعلن تجاه النزعات الوطنيّة في شمال أفريقيا [الداعية إلى التحرّر والاستقلال عن فرنسا]، بل شكلاً من أشكال التعاطف الذي بالكاد كان يخفيه مع دعاة الحفاظ على الجزائر فرنسيّة؟

لَكِنَّ الامتناع عن الإدلاء بآرائه على الملأ للاصطفاف مع هذا أو ذاك من الفريقين المتناحرين والدفاع عن هذه القضيّة أو تلك لم يمنعه، على العكس من ذلك، بأن يفصح لنا،

صراحة وبطريقته الخاصة وهو التلميذ الوفيّ لماسينيون، عن اعتقاده دون مجاملة في منطق التاريخ الذي لا رجعة فيه المتمثّل في تحرُّر شعوب شمال أفريقيا [من الاستعمار الفرنسي] .

علاوة على ذلك، فقد كان في المدرسة الفرنسيّة الاستشراقيّة خلال الخمسينيات أحد الذين فهموا - وعلى أي حال أصغرهم سنًّا- أنّ الاستشراق لم يعد حكرًا على العلماء الغربيين وحدهم، ومن ثمّة طفق، مثله في ذلك مثل ليفي بروفنسال وبلاشير، يستقبل بودٍّ باحثين عربًا من المشرق والمغرب [لتوجيههم وتأطيرهم] بدؤوا يقتفون خطوات طه حسين وحسن حسني عبدالوهاب بإنجاز بحوث ذات قيمة علميّة رفيعة تبرهن على سعة معرفتهم في ميدان كان، إلى ذلك الوقت، مقتصرًا على غيرهم من الباحثين الغربيين.

لقد ساهم شارل بيلّا بقسط وافر في تطويع الاستشراق ليتلاءم، في لطف، مع تطوّرات الأوضاع السياسية والاجتماعيّة والثقافيّة التي عرفها العالم العربي الإسلامي، ودفع الشبهة عن الاستشراق الغربي، وكذلك دحض الاتهامات التي وُجِّهت إلى المختصّين بالعربيّة من الغربيين، خاصة أولئك الذين ينحدرون من البلدان الاستعماريّة السابقة. هذه الاتهامات التي كثيرًا ما كانت واهية ولا أساس لها من الصحّة. وهكذا قدّم بيلّا مساهمات ثمينة في ربط صلات مثمرة بين علماء الغرب

ونظرائهم في الشرق في مجال البحث العلمي المتعلّق بالعالم العربي الإسلامي.

- **مختارات من مقال الطيب العشّاش "شارل بيلّا" (بالعربيّة) الذي صدر في كرّاسات تونسيّة (القسم العربي) : مجلّة العلوم الإنسانيّة، محكّمة تصدر بالعربيّة والفرنسيّة عن كلّية الآداب والعلوم الإنسانيّة بتونس، عدد :139- 140، الثلاثيان الأوّل والثاني، 1987 (عدد خاص تكريمًا لشارل بيلّا)، ص9-18 .**

في قائمة منشورات شارل بيلا التي أشرنا إليها 562 عنوانًا بين كتب ضخمة أو صغيرة، ومقالات مطوّلة أو قصيرة، نستشفّ منها خصائص أساسيّة نودُّ أن نبرز أهمّها بالاعتماد على بعض العناوين. وتتمثل الخاصية الأولى في تعدُّد حقول اهتماماته وتنوّعها.

1 ـ اعتنى باللغة العربية وخاصّة، وهذا عجيب إذ هو كلاسيكي، باللغة العربيّة الحيّة أو بالعربية الحديثة، كما اعتنى ببعض المسائل الصرفيّة أو البلاغيّة، وساهم بعد وفاة ريجيس بلاشير في إعداد القاموس ذي اللغات الثلاث: العربية والفرنسية والإنجليزية، كما اعتنى بتأثير الفرنسية في لهجات المغرب.

2 ـ واهتمّ بالجغرافيا؛ فألف في مسائل معيّنة وترجم فصولاً من مؤلفات الجغرافيين العرب مثل ما كتبه عن المغرب: المقدسيُّ في كتابه "أحسن التقاسيم".

3 ـ واهتمّ بتاريخ العرب والمسلمين من خلال قضايا معينة دقيقة حول حلف الفضول في الجاهلية، وحول الرسول، وحول الشام وفلسطين في أخريات أيام صلاح الدين، وحول الباكستان. كما أعاد تحقيق أحد الكتب التاريخية الأساسية وترجمته؛ نعني كتاب: مروج الذهب ومعادن الجوهر... في سبعة أجزاء الاثنان الأخيران منها مجموعة فهارس تكوّن -بحقّ- موسوعة أدبية وتاريخية وجغرافية. وقد اهتم شارل بيلّا بازدهار المسلمين كما اعتنى بمراحل تراجعهم خاصّة في الميدان الثقافي.

4 ـ ولم يهمل شارل بيلا الأديان والمذاهب أو الفرق الإسلامية؛ بل اعتنى بها بالانطلاق خاصة من آثار الجاحظ فتعرّض إلى الخوارج والأمامية والمعتزلة؛ مبرزًا شخصيّة بعض أعلامهم: الجاحظ في المقام الأول.

5 ـ ولكن، لئن كانت عنايته باللغة والجغرافيا والتاريخ والفرق هامة فإن عنايته بالأدب أكثر أهمية... فقد خصَّص فصولاً عديدة المسائل خاصة درسها عبر التاريخ، مثل "النثر العربي ببغداد"، أو الأدب العربي بالأندلس، أو الأدب العربي وقضايا الأدب المقارن.

كما اهتمّ بالشعر العربي فألّف لدائرة المعارف الإسلامية فصولاً يصعب إحصاؤها عن شعراء فحول أو مُقلِّين من الجاهلية إلى القرن الخامس للهجرة، وجمع ودرس أشعار بعض الشعراء

من المشرق والمغرب، مثل ابن مُفَرِّغ، ومحمد بن يسير الرياشي، وابن شُهيد. وقد ألقى عليهم دروسًا بجامعة عمّان بالأردن باللغة العربية نُشرت في كتاب. ثم درس الموشح والزجل "همزة الوصل بين ثقافات مختلفة"، كما درس الدوبيت والشعر الملحون (فصل ملحون، دائرة المعارف الإسلامية)، وكان في جلّ أعماله حول الشعر المحقّق المدقّق الذواقة لفنٍّ اعتبره بعض المستشرقين من الجنان المضنون بها على غير أهلها. وكم عبّر لنا عن إعجابه ببعض القصائد وبعض الأبيات من مثل قول دعبل الخزاعي (من الكامل):

أين الشبابُ؟ وأيّةً سلكا؟.

لا، أين يطلبُ؟ ضلَّ، بل هلكا

ولكن مهما كان سلطان الشعر قويًّا وسحره عجيبًا فإن هوى شارل بيلّا كان مع النثر: حديثه وقديمه، مغربه ومشرقه. فمن الأدب الحديث استهواه نثر جبران خليل جبران فترجم منذ سنة 1947 بعض قصصه. وسحرته شهرزاد فَحدَّث عن أسطورتها في الأدب المعاصر طلبة كليّة التربية بطرابلس، ثم درسها بالاشتراك مع السيدة هيام أبي الحسين شخصيةً أدبيةً. ولكنَّ النثر القديم هو الذي شدّه إليه طوال حياته فاهتمّ بأهم أعلامه وآثارهم: اعتنى بابن المقفع وترجم خاصة كتابه: "رسالة في الصحابة" ترجمة نموذجية، واعتنى بابن قتيبة

فحقق بالاشتراك مع محمد حميد الله كتاب "الأنواء"، ثم بيّن موقفه من الثقافة العربية، كما حقق وترجم كتاب "مسائل الانتقاد" لابن شرف القيرواني، ودرس حياة ابن شُهيد وآثاره، وخاصة رسالة "التوابع والزوابع"، وكذلك ابن حزم. ولكن أين عنايته بهؤلاء من عنايته بـ"صاحبه" الجاحظ؟ فهو الذي عُرف شارل بيلّا به واشتهر ومن آثاره انطلق إلى آثار غيره... وهناك خاصيتان ثانية وثالثة نستشفها من آثار شارل بيلّا انطلاقًا مما كتبه عن الحلم. فهو أولاً لا يكتفي بالتعميم؛ بل كثيرًا ما يعود الى نفس الموضوع، فيتعمقه وينقّحه وكثيرًا ما يتدارك أخطاءه متواضعًا تواضع العلماء، ثم هو ثانيًا لا يكتب فحسب في لغته الأصلية، أي الفرنسية، بل يكتب في لغات متعددة، هي، بالإضافة إلى الفرنسية، اللغات العربية والإيطالية والإسبانية والإنجليزية، وإن شئت زد البربرية، فهو يحذق حذقًا تامًا هذه اللغات الخمس أو الست؛ يُحرّر بها ويحاضر ويترجم منها وإليها وقائمة مؤلفاته بذلك تشهد.. وهو يؤمن بالتعاون في تواضع، ويعرف أن الكبر لا ينفع، ويؤمن بالاحترام المتبادل، وكثيرًا ما كان يردد قول الراجز:

نقــطع أرضًــا ونـلاقـي أرضــاً

إن البــلاد غلبتنـــــي عرضــا

مؤلّفات بيلاّ المعتمدَة في هذا الكتاب

كُتُبه (بالفرنسيّة)

1- سيرة مستعرب

Une vie d'Arabisant, Paris, Edition de la Librairie Abencerage, A.Ghozzi, 2007

2- أثر بيئة البصرة في تكوين الجاحظ الأدبي والفكري

Le Milieu Basrien et la formation de Ğāḥiẓ, Paris, Adrien-Maisonneuve, 1953

3- اللغة والآداب العربيّة

Langue et Littérature arabes (deuxième édition), Paris, Librairie Armand Colin, 1970

4- اللّغة العربيّة الحيّة

L'Arabe vivant, Paris, Librairie D'Amérique et D'Orient : Maisonneuve, 1984

5- مقدّمة لدراسة اللغة العربيّة الحديثة

Introduction à L'Arabe moderne, (Deuxième édition). Paris, Maisonneuve, 1985

6- شهرزاد: شخصيّة أدبيّة (شراكة مع هيام أبو الحسين)

Hiam Aboul-Hussein-Chales Pellat, Cheherazade: Personnage littéraire; 2 édition, Alger, Société nationale d'édition et de diffusion, 1981

7- نصوص عربيّة متعلّقة بحساب العقد

Textes Arabes relatifs à la Dactylonomie, Maisonneuve El Larose, Publications Du Département D'Islamologie De L'Université De Paris-Sorbonne Paris, 1997

مُؤَلّفات ترجمها إلى اللغة الفرنسية

1- (من الإيطالية): كارلو-ألفونسو نلِّينو، الأدب العربي من بداياته إلى العصر الأموي

Carlo-Alfonso Nallino, La littérature arabe: Des origines à L'époque de la dynastie umayyade, traduction française par Charles Pellat, Paris, Maisonneuve, 1950

2- كتاب التاج المنسوب إلى أبي عثمان الجاحظ

Le Livre de la Couronne : ouvrage attribué à Ǧāḥiẓ , traduit par Charles Pellat, Paris, Ed Les belles Lettres; 1954

3- كتاب البخلاء للجاحظ

Le Livre des Avares, Traduction et notes par Charles Pellat, Beyrouth, commission internationale pour la traduction des chefs-d'œuvres- Paris, Maisonneuve, 1951

مقالاته في مجلّات علميّة مختصّة وقع جمعها في كتاب صدر بعنوان : "دراسات في التاريخ الاجتماعي والثقافي للإسلام"

Etudes sur l'histoire socio-culturelle de L'Islam» (VI Ie, XVes.), London,Variorum Reprints, 1976.

«Littérature arabe et problèmes de littérature comparée» in Etudes sur l'histoire socio-culturelle de L'Islam» (VI Ie, XVes.), London, Variorum Reprints, 1976.

"الجاحظ في بغداد وسامرّاء"

«Ğāḥiẓ à Baġdād et à Sāmarrā» in Rivista degli Studi orientai, XXVII (Rome, 1952)

"الإمامة في مذهب الجاحظ [السياسيّ والدينيّ]

«L'mamat dans la doctrine de Ğāḥiẓ» in *Studia Islamica* XV (Paris, 1961)

«christologie Ğaḥiẓenne» in *Studia Islamica*, XXXI, (Paris, 1970)

"الجاحظ والنصرانيّة

«Ğāḥiẓ et les Khāridjites» in Folia Orientalia, XII (Varsovie, 1970)

"الجاحظ والخوارج"

- "آراء الجاحظ في الأمم المتحضّرة والعقائد الدينيّة

- «al-Ğāḥiẓ; «Les nations civilisées et les croyances religieuses» in *Journal asiatique*, CCLV, (Paris, 1967)

- "الجاحظ وشعوب شبه القارة الهنديّة" "تعظيم شخصية معاوية في القرن الثالث للهجرة"

- «al- Ğāḥiẓ et les peuples du sous-continent» in Oientalia Hispanica, Sive studia F .M. Pareja octogenario dicata à Leyde 1974

"الجدّ والهزل في الإسلام المبكّر"

- «Seriousness and Humour in Early Islam» in *Islamic Studies*, 2-3 (Karachi, 1963)

"مفهوم الحِلم في الأخلاق الإسلاميّة"

- «Concept of ḥilm in islamic ethics» in *Bulletin of the institute of Islamic Studies*, VI-VIII (Aligarth, 1962-3)

- «Concept of ḥilm in islamic ethics» in *Bulletin of the institute of Islamic Studies*, VI- VIII

- «Littérature arabe et problèmes de littérature comparée» in Etudes sur l'histoire socio-culturelle de L'Islam» (VI Ie, XVes.), London, Variorum Reprints, 1976

"تنوُّع في موضوع الأدب"

- «Variations sur le thème de L'adab» in Etudes sur l'histoire socio-culturelle de L'Islam (VI Ie, XVes.), London, Variorum Reprints, 1976

- "الموسوعات في العالم العربي"

- «Les Encyclopédies dans le Monde arabe» in l'histoire socio-culturelle de L'Islam (VI Ie, XVes.), London, Variorum Reprints, 1976

-"هل يمكننا معرفة معدّل الولادات في زمن الرسول؟

- «Peut-on connaitre le taux de natalité au temps du Prophéte?: A la recherche d'une méthode» in Journal of The Economic and Social history of the Orient, 14-2 (Leyde 1971)

-"بعض الأرقام حول معدّل الأعمار لدى شريحة من المسلمين"

-«Quelques chiffres sur la vie moyenne d'une catégorie de Musulmans» in Mélanges d'Islamologie (Mémorial A.Abel) (Leyde 1974)

- " الأدب العربي وقضايا الأدب المقارن"

- «Littérature arabe et problèmes de littérature comparée» in Etudes sur l'histoire socio-culturelle de L'Islam (VI Ie, XVes.), London, Variorum Reprints, 1976

- "السراسينيون (المسلمون) في أفينيون"

- «Les Sarrasins en Avignon» in En Terre d'Islam, 1944-4 (Lyon 1944)

مقالات من تأليف بيلّا بالفرنسية في دائرة المعارف الإسلاميّة، (ط2)، مُرتّبة ألفبائيًا مع ذكر الأجزاء المقتطفة منها وأرقام صفحاتها

- "إبل"، ج3، ص 687 -690
- "بربر"، ج1، ص1208-1209
- "بصرة"، ج 1، ص1117-1119
- "بغل"، ج 1، ص936-937
- "الجاحظ"، ج 2، ص 395-398
- "الجدّ والهزل"، ج2، ص549-550
- "حرباء"، ج3، ص479
- "حكاية"، ج3، ص379-384
- "حِلْم"، ج3، ص403-404
- "حماسة"، ج3، ص113-114
- "حيوان" (علم الحيوان لدى العرب)، ج3، ص321-323
- "خبز"ج5، ص42-44
- "خيْمة"، ج4، ص1178-1179
- "غراب"، ج2، ص1122-1123
- "فيل"، ج2، ص913-914
- "كسكسو"، ج5، ص 531-532
- " مِرْبد"، ج7، ص115-116
- "مقدّمة"، ج 7، ص495
- "مُكدّي"، ج 7، ص493-495
- "نادرة"، ج 7، ص 858-860
- "هجاء"، ج3، ص363-366

مراجع

- نجيب العقيقي، المستشرقون، ج3، ط4، مصر، دار المعارف، 1981، ص353-359، وكذلك:

Alain Messaoudi, in Dictionnaire des orientalistes de langue française, nouvelle édition, (François Pouillon (éd)), Paris, Kartala , 2012,

- الطيب العشّاش، "شارل بيلّا" في كرّاسات تونسيّة: مجلّة العلوم الإنسانيّة، محكّمة تصدر بالعربيّة والفرنسيّة عن كلّية الآداب والعلوم الإنسانيّة بتونس، عدد: 139- 140، الثلاثيان الأوّل والثاني، 1987 (عدد خاص تكريما لشارل بيلّا)
- محمد الجويلي، نحو دراسة في سوسيولوجية البخل، تونس، الدار العربيّة للكتاب، 1990
- الجاحظ، البخلاء، الدار البيضاء، مكتبة السلام الجديدة، 1999، ص10

- André Parrot «Charles Pellat-Langues et Littérature arabes (compte-rendu)» in Syria, Archéologie, Art et histoire, année 1953, N30- 1-2

المواقع الشبكيّة المتعلّقة بشارل بيلاّ

- https://ar.wikipedia.org/wiki/شارل_بلا
- https://platform.almanhal.com/Files/2/42654
- k-tb.com/author/شارل-بيلاّ
- https://archive.org/details/Tareekh_20170106_0347
- https://archive.org/details/Tareekh_20170106_0347
- https://archive.org/details/Tareekh_20170106_0347
- https://www.asjp.cerist.dz/en/article/10716
- https://ramadaneblog.wordpress.com/.